

علي أدهم
نظرات في الحياة والمجتمع
دار المعارف

نظرات في
الحياة والمجتمع

علـى أدهـم

نظـرات في الحيـاة والمجتمع



دار المعارف

تصميم الغلاف : **شريفة أبو سيف**

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

معرفة النفس الإنسانية ليست من الأمور اليسيرة الهينة ، ولكن برغم ذلك فإن كل إنسان يخال نفسه أهلاً للتحدث عنها والخوض فى أسرارها وغوامضها ، والظاهر أن الإنسان يبيح لنفسه هذا الحق ويستمسك به ويصر عليه لمجرد كونه إنساناً ، بغض النظر عن مستوى عقليته ومدى ثقافته ، وقد يحدونا فرط الثقة بالنفس وتنزو بنا نزوات العجب فنتحدث عنها بلهجة الواثق وتأكيد المستيقن ، ولست أبرئ نفسى ولا معظم الناس من هذا اللون من ألوان الغرور والادعاء الذى تفرضه علينا طبيعة الحياة وملابسات المجتمع ، ويحلو لنا فيه أن معرفة الكثير عن طبيعة الإنسان وبناء المجتمع لا تستلزم تدريباً خاصًا ولا تقتضى الحصول على إجازة معينة من إحدى الجامعات ، وكثيرون ممن عرفوا أشياء قيمة عن طبيعة الإنسان لم يتلقوا دراسة منظمة ، ولم يحملوا ألقاباً علمية جامعية ، وإنما تهدوا إلى تلك الحقائق بخواطرهم الملهمة ونظراتهم النافذة ، ومن يدرى فربما كانت اللمحات الخاطفة أهدى إلى الحق من تعمق العلماء وتروية المفكرين .

ولست من العلماء المتخصصين ، ولا من الحكماء الذين رزقوا المعرفة اللدنية وخصتهم الطبيعة بعطائها الغمر ونائلها الجزل ، ولكنى أحب أن أسير فى آثار هؤلاء الهواة الذين راقهم أن يعرفوا أشياء عن الطبيعة الإنسانية ، وشاقهم حب التطلع والاستبانة .

وقد عرف علماء علم الحياة ، وعلماء علم الإنسان ، وعلماء علم النفس ، وعلماء الاجتماع ، وعلماء الاقتصاد ، وعلماء التربية أشياء قيمة عن الإنسان والحياة

والمجتمع ، ولكنهم جميعهم يسلمون بأن المجهول أعظم من المعلوم . على أنه من اللازم من الحين إلى الحين أن ننظر إلى ذلك المعلوم فى ضوء المجهول . وأن ننظر إلى المجهول فى ضوء المعلوم ؛ حتى لا يستخفنا الغرور ولا يقعد بنا اليأس .

وأكثر فصول هذا الكتاب تتناول مشكلات حاولت أن أوضح لنفسى غامضها وأجلو دياجيرها . ولعلى فى محاولة توضيحها لنفسى قد جعلتها واضحة جلية لمن تعنيهم أمثال هذه البحوث من القراء .

ولم أحاول أن أصور الطبيعة الإنسانية كما يجب أن تكون لأنى لست على بينة من أمرى فيما يجب أن تكون عليه . ولم أحاول كذلك أن أتحدث عن المجتمع كما يجب أن يكون لأنى لم أتشرف بعد بأن أكون من أصحاب المدن الفاضلة . ومن أجل ذلك لم أحاول أن أعظ وأصلح ، وإنما حاولت أن أصف وأعلل .

ولا تتضمن هذه الفصول فكرة فلسفية خاصة تسرى فى أوصالها وتنتظم أباديدها . ولكنها متشابهة الاتجاه متحدة الهدف . فهى محاولة لفهم أشياء عن الحياة والمجتمع . ولعلها أقرب إلى الدراسات الجدية منها إلى الخطرات الطارئة والآراء العابرة .

على أدهم

حيرة المثقف

فى بعض ساعات الوحدة والاستفراد والاسترسال مع التفكير والإستغراق فى التأملات قد يسائل الإنسان نفسه عن غايته فى الحياة ومكانه فى الوجود . وما قصارى تعّلاته وأمانيه . ونهاية طموحه وتطلعه . وأمثال هذه الخطرات تلم بذهن المفكر سواء أكان عامر النفس باليقين مستريحاً إلى العناية المتجلية فى سير الحوادث أم كان قد أبى الانخداع للأوهام واطمأن إلى الشك الفلسفى . ومما يطيب للمؤمن أو المتشكك أن يعلم فى ساعاته الأخيرة أنه قد بذل أقصى جهده وعمل ما فى طوقه . وأن حياته لم تذهب عبثاً باطلاً ، وأنها أنفقت فى محاولات نافعة . وحبست على غايات مجيدة .

وقد يستشعر الإنسان ضؤولة جهود الفرد فى هذا العالم الأبدى غير المحدود ، ويستبين له فى صورة واضحة محزنة أنه لا يستطيع أن يظفر بنجاح أو يكلل بانتصار فى مكافحة الشر المستفيض ، وتقويض الفوضى الغالبة ، ويرى كيف أن صيحات الأنبياء وتضحيات الشهداء وجهود المصلحين قد ذهبت جميعها أدراج الرياح وما تزال الدنيا على حالها . وقد يكون مكاننا فى الحياة مما يقصِّر بنا عن تحقيق أعز أمانينا وأصدق آمالنا وأسمى مثلنا العليا ، ولكن لا إخلاص لنا من هذا الشعور الأليم الذى يفلّ العزيمة ، ويثلم الفطنة ، ويسلط علينا التردد والنكوص إلا بأن يقنع الإنسان نفسه بأن الحياة ليست نهزة للسعادة والمتعة ،

وإرضاء الغرائز وإشباع الشهوة ، وإنما هى مجال لفهم النفس واستجلاء أسرارها ، ومعرفة الدنيا والسيطرة على قوى الطبيعة الخارجية وقوى النفس الداخلية ، وعلى الإنسان أن يقرر موقفه من الحياة ، ويتبين الرسالة التى زودته بها الأقدار ، ويخوض بعد ذلك غمار المعركة قانعاً أو غير قانع .

ولكنه عندما يحاول أن يختار له غاية تنشأ الصعوبة ويتجسم المشكل ، وسرعان ما تمتد أمامه المسالك وتنفرج الأبواب ، فأى طريق يسلك وأى غرض يقصد وبأى نجم يهتدى وبأى دليل يسترشد ؟ لا فائدة هنا من الركون إلى فلسفة الجبر وإنكار حرية الإرادة ، ولا مندوحة عن مواجهة عقدة الاختيار والاضطلاع بمسؤوليته ، فماذا يختار ، ولأى معبود يقدم الطاعة والقربان ؟ أيختار سبيل الفنان أو طريق السّياسى أو مذهب العالم أو خطة الفيلسوف ؟ وهل يحيا حياة حافلة سرية ممتلئة بالعواطف ، أو يعيش رواقياً متجلداً تعصف حوله الخطوب ، وتزخر الأهوال وهو ثابت لا يتزعزع وقور لا يتزلزل ؟ . ولا نزاع فى أن للحياة العاصفة جمالاً يطبّى النفس ، وشجاعة تدعو إلى الإعجاب ، وروعة تغرى بترسمها ، ولانزاع كذلك فى أن لحياة التجلد وكبح شرة النفس والاستخفاف بملاهى الحياة جلالاً يسترعى الفكر ويثير الإكبار. ولكن من الصعب على الإنسان أن يكون كل شىء ، ولا مفر له إذا أراد أن يعمل عملاً مأثوراً مذكوراً فى ناحية من النواحى أن يهمل النواحى الأخرى ، ولو انطلق الإنسان مع غرائزه ، ولبى مطالبه الرعن فمن المتعذر عليه أن يحقق مثله الأعلى . وإذا استطاع أن يخمد فى نفسه كل شهوة ، ويسحق كل رغبة فإنه سيعيش عيشة هادئة مستقرة ولكنها منزوفة ناضبة كامدة الألوان مظلمة النواحى ، وسيخشى أشباح شهواته المنقمعة وثورة أهوائه المكبوتة ، والحضارة تفرض على الإنسان الكبح ، وتزين له فضيلة الاستسلام ومحاسن التضحية ، ولكن التضحية ستظل

درساً قاسياً يعانى منه الإنسان أبرح الألم مهما كابر وغالط فى الحقائق .

ونحن نقبل فى الحياة على دنيا قد حفلت بكنوز المعرفة وذخائر الفنون ، وبها نفائس الصور وروائع التماثيل ، وبدائع الموسيقى وغرر التصانيف ومبتكرات الصناعة ومستحدثات العلوم ، وهذه الصور والتماثيل نبت حضارات منوعة وثمرات عبقريات سامية ومجهودات ضخمة ، وقد صنفت الكتب فى أزمنة متباينة ، وبلغات مختلفة ، وهى فيض قلوب كبيرة ، وصوب عقول راجحة ، وقد تضافرت القرون المتتابعة على تنمية هذه الثروة . ولعل أول واجبات التربية الحقة هو أن تفتح عيوننا على هذه الآثار وتلقننا الإعجاب بها وتبصرنا محاسنها ، وتدنيها إلى قلوبنا ، وتغرس فى نفوسنا القدرة على استمرائها والاستفادة منها ، ولكننا عندما نتجرد لتعميق هذه القدرة وتوسيع نطاقها تبدو لنا وعورة المرتقى واستحالة المطلب ، لأن قوة التحصيل فينا محدودة قليلة والحياة جدّ قصيرة ، والإنسان يريد أن يستخبر كل مجهول ويستبطن كل سر ، وأن يسع علمه كل شىء ، فلا يجهل ظاهراً ولا خفيًّا ، ولا تنِد عنه شاردة ولا واردة ، ولكنه يرى قصر الحياة وإستهدافها لسلطان المصادفة ، فيظهر له غرور المعرفة وخداع الأمل وعبث الطموح ، ويستوثق أن مصير آماله الزاهية فى الإحاطة الشاملة للأفول ، وأن ظمأته إلى المعرفة لن يرتوى لها غليل ، وأنه لن ينتهى إلى غايته مهما تمهد له الأسباب ويبسط له العمر ، وهذه هى حيرة النفس ومأساة الحياة . وما دام الإنسان مضنوناً عليه بالخلود ، فمن الصعب عليه أن ينفى عن الحياة شوائب النقص ، ويرد عنها عوادى الأسف والحزن . وإذا كان لابد من انتصار الموت فى النهاية ، فإن النزوع إلى المعرفة الكاملة أمل كذوب وسراب باطل . وقد لا تخلو من العجب محاولة الإنسان أن يتزيد من المعرفة وهو مضطر بعد حقبة يسيرة إلى ترك هذه الدنيا التى يكلف بها ويولع بأسرارها ، فلو بسط له فى العمر لحقق

بعض ما يجول بخاطره وتصبو إليه نفسه ، ولكن عليه أن ينشد الغايات العظيمة ، ويبحث عن الكمال والموت كامن له بالمرصاد والمهالك تطالعه من شتى النواحى .

ومن دأب الإنسان ألا يكتفى بالتذوق والاستمتاع ، بل هو يحاول أن يجدد فى نواحى التفكير ويضيف إلى المحصول العالمى ، ويود أن يبتكر بدائع كالتى استمتع بها ، ومن شاء أن يخلق ويبتدع فلا معدى له عن أن يقتطع جزءاً من الوقت المخصص للتحصيل ، ولا نزاع فى أن القراءة مدرجة للكتابة والتأليف ، ولا نزاع كذلك فى أن الكاتب لا يؤمل أن يقرأ قراءة واسعة كمن هو مستعد لأن يقف كل وقته للقراءة والاطلاع . والكاتب المجيد يجب أن يكون عالماً دارساً . والعالم الصادق يجب أن يكون رجلاً ملماً بأحوال الدنيا حتى يحصل على معرفة مباشرة حية للأشياء فى مختلف ظلالها وألوانها . ولكن من أفرط فى التماس الدنيا صار منها وأعجزه الارتفاع إلى ما هو أسمى منها ، ومن أمعن فى التغلغل إلى آراء الغير فقد فرصة إظهار شخصيته والقدرة على التعبير عن آرائه ، والخالق المبتكر لابد له أن يغالب بعض المغالبة رغبته فى التبحر والاستيعاب . وهنا تبدو لنا صعوبة حياة الإنسان الثقافية . وليس المشكل هو قصر الحياة ولا ترامى أبعاد الثقافة وتنوعها بحيث لو وقف الإنسان حياته عليها لما استطاع سوى تحصيل جزء يسير منها . وإنما هو أن نفس إمعانه فى الإقبال على الثقافة كل الإقبال غير ممكن ولا ميسور . لأن عليه أن يوجه جزءاً كبيراً من جهده للعمل والخلق ، وليس عليه فى ساعات فراغه الاكتفاء بالتحصيل ، بل عليه أن يخلق ويجدد . وفضلا عن ذلك فإنه لا يريد أن ينمى استعداده لتقدير كل بارع ممتاز وخلق أمثلة منه فحسب ، بل يريد أن ينمى إلى جانب ذلك حياته العاطفية وقابليته للشعور والتعبير عن الشعور بالعمل ، ولكنه من الواضح أنه لا يسمح لنفسه ولا يسمح

الناس له بأن يحرك مشاعره إلى عمل يهدد المجتمع ويضر بالثقافة ، فعليه ألا ينهب ولا يسرق ، وإذا استفزه الغضب فيجب عليه ألا يعمد إلى الضرب والقتل ، ومهما تسيطر عليه الشهوة فعليه أن يحترم النواهى والزواجر ، وهكذا يجد الإنسان نفسه مضطراً فى كل موقف إلى مدافعة ميوله الأصيلة وغرائزه الأولى . ولا ريب أن شعور الإنسان بالميل إلى العمل ثم شعوره بالموانع التى تحد من حريته تجعله فى قلق دائم وشقاء مستمر ، فهل يعبر الإنسان عن عواطفه ويتحدى المجتمع ، أو يكبت عواطفه ويخرس هاتفها ؟ إن الإنسان يشقى بكبت عواطفه ، وكذلك يشقى لو أطلق لها العنان ! .

وقد نستعين على رياضة جموحنا بإطلاق قيودنا فى عالم الوهم والخيال ، فيكون لنا من أشخاص الروايات التى نقرؤها أعداء ألداء يكيدون لنا ، وأصدقاء حميمون أو داء يعطفون علينا ، ويهزنا ما بها من مخوف الأهوال ومروع الفواجع فنريق دموع الحزن أو تغلى نفوسنا بفائر الشهوة ومضطرم الأهواء ، ومادام ذلك لا يشجعنا على إتيان مثل هذه الأعمال فى عالم الواقع فلا ضرر فى ذلك ، بل إن فيه نفعاً محققاً إذ يمكننا أن نلقى فى عالم الوهم الأثقال الأدبية التى ترهقنا فى عالم المشاهدة ، ولكن هناك خطراً واضحاً وهو أن هذا التعبير الوهمى عن عواطفنا بدلاً من أن ينفيها قد ينبه راقدها ويمنحها القوة على إرتكاب المحظور .

والواقع أن الإنسان لا يريد إخماد عواطفه خشية أن يعيش بقلب فاتر وإحساس جامد ، ولا يريد أن يثيرها على صورة تعرضه للخطر والوقوع فى براثنها ، وهو يأبى أن تكون حياته فقيرة عاطلة لا تنبض فيها نبضات السرور ولا تضطرب فيها رجفة الألم ، بل هو يريد أن يستجيش شعوره ويستنهض همته على شريطة ألا يفقد عنانه ويضل غايته ، ويود أن يشعر شعوراً قويًّا غلاباً بالسرور والغضب والحزن ليستثمر ذلك فى خدمة المثل الأعلى ، ويسخره للغاية

السامية ، وهو فى حاجة إلى إستدعاء هذه الأرواح من مستقرها وإثارة هذه الشياطين الراقدة فى النفس وعليه أن يرد جماحها إذا صاولته وحاولت الإنفلات من قبضته ، وفرويد نفسه يسلم بأن التسامى لا يكفى لتهدئة الميول فضلاً عن تفاوت المقدرة عليه .

ومن ذلك يرى الإنسان أنه أوضح عجزاً وأقصر حيلةً من أن يحيط بكل شىء فيفكر فى التنازل عن الكثير ليتسنى له التبريز فى ميدان محدود ، ويختار لحياته غاية قريبة يوجه إليها همته ويحصر فى تخومها جهده ، ويعيش للعمل الإجتماعى المنوط به أو يعيش للعمل الذى خصص له أوقات فراغه ، وسواء عاش لهذا أو لذاك فإنه لابد له إذا أراد التوفيق أن يتوفر على عمله وينقطع له ، وبهذا الأسلوب يضع لحياته قراراً ويهبها وحدة وإنسجاماً ، أما إذا ظل متنقلاً من موضوع إلى موضوع حائراً متردداً بين مختلف الغايات فسيكون له نفوس موزعة ضائعة وشخصيات ضالة مائعة لا نفس فريدة ثابتة ولا شخصية ممتازة نامية تزداد على الإستيعاب والتوسع وحدة واستمساكاً ، وكفايات الإنسان تدل على أنه إذا أراد أن يحقق له شخصية واضحة فعليه أن يقتصد فى مطالبه ، ومن الناس من تقنعهم الإلمامة اليسيرة والتوازن الزائف فيرشفون من كل منهل جرعة ويقطفون من كل حديقة زهرة ، ويوفقون على هذا النمط بين مطالب الجسم وحاجات العقل ، ولكن مثل هذه المساومة الرخيصة ليست بالغاية النبيلة والمطمح الأسمى ، ولكن لا نزاع كذلك فى أن الرجل الذى يريد أن يكون عالماً باحثاً ومتأملاً صوفياً وفناناً ممتازاً وفيلسوفاً عميقاً لاشك أن مثل هذا الرجل مشغول بمحاولة خاتمتها الإخفاق وتبدد الأمل ، والرجل الحريص على التفوق فى ميدان خاص قد يرتضى من أجله أن يضحى بتوازن الشخصية ولا يخشى فى سبيل ذلك إرهاق الصحة والتحامل عليها ، والذين يعملون على إنماء إستعداد

معين بدلاً من أن يفكروا فى تحقيق توازن الشخصية وانسجامها يتفقون جميعهم فى العجز عن السمو إلى الكمال فى نفس الميدان الذى عملوا على التخصص له وإحراز التفوق فيه ، وفى الوقت نفسه سيعاودهم الأسف لما فاتهم فى الميادين الأخرى .

وما دام الإنسان ليس فى وسعه أن يجمع بين الإحاطة الشاملة والإجادة التامة مهما يكثر فى حياته المحدودة العكوف على التخصص فإن هذا مما يبرر الرأى القائل بأنه يجمل بالإنسان ألا ينغمس كل الانغماس فى التخصص ، وإنما عليه أن يشبع مطالبه العضوية والعقلية إلى حد ما ، فلا يحصر همه كله فى إنماء تخصصه وتوسيعه وتعميقه ، وإنما يجعل شخصيته تنمو وتتسع حول محور هذا التخصص ، فمثلاً إذا إنقطع للأدب فعليه أن يلم بآداب بعض الأمم وأن ينشئ أدباً وأن يحيط بمختلف الفنون ، وتكون له دراية بالعلم والفلسفة والدين ، ويستطيع أن يقوم ببعض رحلات يجرب فيها روعة المفاجآت وجمال المخاطرات وسيشعر مثل هذا الرجل فى آخر حياته أنه أدى عملاً .

ولكننا نرى أن الإنسان سواء اختار حياة سليمة قانعة قائمة على الموازنة والانسجام والتوفيق بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، أو إختار حياة تخصص كاملة قائمة على التضحية بكل شىء والمضى إلى الغاية المقصودة والاستهداف لآلام الحرمان ، أو وقف فى منتصف الطريق بين حياة التخصص الكامل وحياة التوفيق بين المتناقضات وموازنة الميول فإن التطلع إلى الكمال والحرص على الكلى سيظل يعاوده ويشوب صفوه ، وقد يكون فى هذا النزوع القوى وهذا الصراع الخفى المتصل بين النفس المحدودة والمعرفة اللامحدودة دليل على حياة وراء هذه الحياة ومصير غير مصيرنا الدنيوى .

التفاؤل والتشاؤم

المتشائم فى اللغة الدارجة والعرف السائد هو الذى يديم النظر إلى الجانب المظلم من الحياة ، ويلحظ عامة الأشياء فى ظل اليأس ، ولا يرى إلا صولة الشر وخيبة الأمل وعسف القدر ونضوب المسرات ، ويتمثل الأمطار والأعاصير فى اليوم الصحو ويحلم بالدجى فى الصباح الطلق ، وهو بغيض إلى الناس لا يخف عليهم محمله ، ولا يسيغون تبرمه ، وقل أن تتسع صدورهم لشكواه أو تختلج بهم الرغبة فى أن يرودوا مكمن دائه ويتعرفوا سر شكيته، وذلك لأن أكثر الناس يعيشون فى جو من الوهم متهالكين على الخيالات الحسان والأحلام الوسيمة ، ويؤثرونها على مرارة الحقائق وجفوة الواقع . وينفرون من كل خطرة تعترض مسبح الأحلام وتسمم ينابيع الرجاء ، وقصاراهم أن ينظروا إلى المتشائم نظرة الصديق إلى صديقه الصريح الذى لا يداجى فى الكلام ولا يحابى أحداً . فهو شخص يخشى جانبه ، ولا يستحب ظله ، وإن كان لا يضن عليه فى بعض الأوقات بشيء من التوقير والرعاية .

أما فى الأدب فإن التشاؤم يدل على طريقة فى النظر إلى الأشياء وحالة عقلية لها ألوانها وخصائصها ، وهو عند الفلاسفة عقيدة فلسفية ومذهب فكرى يستشهدون الواقع فى إثباته وحشد الأدلة على صحته ، ويقطعون العمر فى تحبير الرسائل وإنشاء المؤلفات لتدعيم أركانه ونشر رسالته .

والتشاؤم فى جوهره جواب على سؤال خطير وهذا السؤال هو ما قيمة الحياة ؟ وكانت هناك طائفة من الأفكار مبعثرة فى ثنايا الكتب القديمة ترمى إلى أن الحياة لا قيمة لها وأن العدم خير من الوجود فجمعها فلاسفة الألمان ونظموها ونفخوا فيها حياة جديدة واستنبطوا منها المذاهب الفلسفية وأرغموا الناس على أن يفكروا من جديد تفكيراً جدياً فى قيمة الحياة سواء انتهى بهم التفكير إلى رفض التشاؤم أو قبوله .

والتفاؤل يقوم على فكرة كمال نظام الكون وإبداع تنسيقه . وهذه الفكرة هى معقل المتفائلين الحصين ، وموئلهم الأمين ، وهى بلا ريب فكرة جليلة تفرغ على القلب العزاء ، وتهوّن عليه فقد كل عزيز ، وضياع كل فرصة . وتقوى الأمل فى الحق والعدالة وتشد من عزم المجاهدين للغاية السامية وناشدى المثل الأعلى . ويعتقد فريق من المتفائلين بأنه لا شر فى الحياة سوى الحاجة والتنافس . وأن هذين يبطلان عندما يحب الناس بعضهم بعضاً ، وأن الجريمة ليست نتيجة دافع عتيد فى النفس الإنسانية ، والأثرة ذاتها حادثة اجتماعية عرضية . وإذا قللنا ساعات العمل ورقينا حالة العمال عاد إلى الحياة الروحية رونقها . ولو نظم المجتمع تنظيماً أبدع من التنظيم الحاضر لانقطعت الأحزان البشرية وازدهرت الآمال وعمّ الصفو ، وأصبح اليوم الذى يفوز فيه الخير ويظفر بالشر قريب المطلع دانى الأوان . ويستلزم ذلك كله فكرة أن كل شىء فى هذا الوجود متجه إلى الخير وأن العناية مشرفة على الدنيا ، وهى فكرة جميلة توحى الطمأنينة إلى القلب ، وتصلح الصلاح كله لتكون وحياً يستلهمه متصوفة الشعراء ، ومرجعاً يرجع إليه طلاب الخطب المنبرية ، وذخيرة لا تنفد للأخلاقيين ، ولكنها لا تقنع صاحب العقل المنقب الجوال ، ولا تخرس هواتف شكوكه ، ولا تهدئ ثوائر أشجانه .

ولقد انتشرت فى القرن الثامن عشر فلسفة تقول إننا نعيش فى أكمل دنيا ممكنة ، وإن كل ما فى الوجود يعمل على إسعادنا ، وإن كل المتناقضات البادية فى الحياة ، والعوامل المتضاربة فيها ، وكل ما يصيب البشرية من بلايا وخطوب شداد ومن مجاعات وحروب طاحنة وأوبئة مبيدة . كل ذلك أغراض حميدة ، ومزايا لا يستهان بها ونعمة طويت فى نقمة ، وأمثال هذه الأفكار تجعل الإنسان كثير الاعتماد على الله صابراً على ما يمسه من سوء فهى عزاء المنكوب وسلوة الصابر ، ولكن لها ناحية أخرى كريهة تغرى بالخمول والإستسلام ، لأنه إذا كانت الحياة جميلة وكاملة وليس بها من عاب فماذا علينا أن نعمل إذن ؟ إن عدم الاقتناع هو مهماز الرقى لأن كل نقد للحاضر إنما هو عقد مقارنة بينه وبين حالة أسمى وصورة أكمل مرتسمة فى النفس ، وهذه الفلسفة من ناحية أخرى أداة صالحة لتسخير الفقراء وإسكاتهم لأنه من صالح الطامعين فى الحياة وذوى النفوذ والثراء العريض أن يؤمن الفقراء إيماناً لاكفاء له بأن القناعة كنز لا يفنى ، وأن الغنى هو غنى النفس وأشباه تلك الحكم الشائعة والأمثال المضروبة .

ولو سألت أحد أنصار هذه الفلسفة القانعة الراضية عن فوائد البعوض وأثره الخير فى الحياة ، وعن البركة العظيمة فى وجود الميكروبات والحشرات السامة ، وكيف يجىء إلى العالم ذوو العاهات والمبتلون بنقص الخلقة لسمعت منهم شروحات ضافية وتخريجات عجيبة وسفسطة مضحكة ، فالحروب عند هؤلاء القانعين تأديب من الله للبشر العاصين ، والزلازل والبراكين نذير الغضب وآية النقمة ، وقد روى أحد كتاب الروس أن واعظاً من مروجى فلسفة القناعة وأنصار مذهب « له فى ذلك حكمة » كان يخطب الناس ذات يوم فقال : فى سياق وعظه « إن كل شىء فى هذه الحياة جميل » فانبرى له أحدب من سامعى خطبته وملتقطى فرائده وقال له : « هل أنا كذلك جميل ؟ » فأجابه الواعظ :

«نعم إنك أحدب جميل» .

مثل هذه الفلسفة التى تستهين بأحزان البشرية ، وتغمض العين عن فواجع الحياة ومآسيها المبكية ، وتأخذ كل شيء هيناً سهلاً ، وتحوّل بسحر الحكمة كل مصيبة داهمة ونكبة جائحة إلى بركة مستترة وحكمة مستخفية لا تقبل بسهولة ، وجميل من الإنسان أن يكون قانعاً باسم الثغر لا يروع سربه الآمن شيء ولا يعصف بتوازن عقله عاصف ولا يزعزع يقينه شك ، ولكن ليس من الجمال فى شيء أن ينعم فى الغباء ويرتع فى الجهالة العمياء .

ولقد شاء الله أن تتحطم هذه الفلسفة وتندك صروحها بيد قوية لا تلين ولا ترحم ، يد رجل أشد من السيل فى انصبابه وأقوى من العاصفة فى هبوبها ، ذلكم الرجل هو آرثر شو بنهاور أحد قادة الفكر فى القرن التاسع عشر ونبى المتشائمين فى العصور الحديثة ، وحول اسمه تدور حركة فكرية طنّانة قد أثّرت فى عالم الفكر أعظم تأثير . وشوبنهاور رجل جاد لا يحاول أن يتملقك ويترضاك لتقبل فلسفته وتقر نظرياته . وليس من أربه أن يواسيك فى همومك أو أن يزودك بالنصائح الغالية لتقّبل يده فى النهاية ، وإنما غرضه أن يصدع بالحق ويبصرك الحياة كما هى حسبما يعتقد ،وعليك أن تصدقه وتؤمن به وإلا فاذهب إلى الكنيسة (كما يقول هو فى مقالته الضافية عن شقاء الدنيا) ويرى شوبنهاور أن الحياة قائمة على مغالطة كبيرة وتناقض مؤلم ، وذلك لأننا نحب الحياة ونهيم بها ، ومن أجل ذلك نميل إلى العمل ، لأن الحياة معناها العمل ، والعمل معناه النزوع واللهفة والاشتياق ومعاناة الألم لإدراك نهاية العمل الذى نباشره ، وهذا هو جوهر الوجود ، فالحياة إرادة مستمرة ، وكل إرادة تتجه إلى إرواء غلتها وإنجاز بغيتها ، أو بلفظ آخر إلى إفناء ذاتها ، فأنا أريد الحب مثلا ، ومعنى ذلك أنى أريد إنهاء حالة عدم الحب . وهكذا كل إرادة تنزع إلى إدراك رغبة ، ونفس إدراك الرغبة

قتل للرغبة ، وحفز إلى رغبة جديدة لا تلبث أن تفنى هى أيضاً عند تحقيق غايتها ، والحياة هكذا كلها رغبات متتابعة يؤلمنا تحقيقها كما يؤلمنا عجزنا عن تحقيقها ، فالحياة إذن حزن متصل وألم دائم لا حيلة فى دفعه ولا طباب لدائه ، والدنيا فى نظر شوبنهاور أردأ دنيا ممكنة لأنها لو كانت أردأ من ذلك وأسوأ لكان ذلك أرحم بالناس وأبر لأنه كان يستحثهم على وضع حد لها .

والمتشائمون تحت لواء شوبنهاور يذهبون إلى الطرف الآخر ، فيقولون إن الدنيا رديئة ، وإن الشر متغلغل فى كل شيء ، وإن حياة الإنسان على قصرها حافلة بالهموم والمتاعب تضله فيها كواذب الأمانى وتشقيه الخواطر السود والآلام المبرحة ، وإن الإنسان يسير من الحياة فى طريق وعر شائك ليتردى فى الهاوية السحيقة ، وليس الشقاء مقصوراً على الإنسان وحده ، وإنما يشمل سائر المخلوقات وكل الدنى والعوالم ، والأحياء برمتها من الحشرة التى تدب فى الجحر إلى السمكة التى تسبح فى البحر إلى الطير المحلق فى الجو إلى السائمة التى ترعى فى الحقل . والإنسان شقى فى كل مراحل حياته وأدوار عمره ، وفى جميع حالاته من الطفولة إلى الشباب إلى الشيخوخة ، ومن الملك المتوج إلى الصعلوك المتسول ، وإذا أمن الإنسان فى ناحية من النواحى تدمير الطبيعة وسطوة العناصر حيث لا تطغى الفيضانات المغرقة والسيول الجارفة فهنالك عداوة الإنسان للإنسان والجرائم والخسة والنذالة والسخافة والجهالة والآلام المعنوية والأحزان الفكرية ، والفرق الأصيل بين المتشائم والمتفائل هو أن المتفائل يرى عدالة فى نظام الكون وحكمة فى حركات الطبيعة ، أما المتشائم فهو لا يرى فى الطبيعة أثراً للعدالة ولا يدرك لها غاية أخلاقية ، والطبيعة – إذا استثنينا غريزة الأمومة والعطف على الأبناء والمحافظة على الصغار إبقاءً للنوع – صلبة القلب متحجرة الشعور ليس فيها ذرة من العدالة ، والعالم الحيوانى عبارة عن معسكر شاكى

السلاح على أهبة للقتال تتجلى فيه القسوة والجشع والخيانة والنفاق ، ويستعمل فيه كل ضرب من ضروب الاحتيال للفتك بالبرىء . وإيذاء الغافل ، واضطهاد الوادع ، والقوة الوحشية مسيطرة فى كل نواحيه . ولا ينكر المتشائمون أن فى الطبيعة رقياً من النوع الأسفل إلى النوع الأعلى . ولكن ليس هناك دليل على وجود رقى أخلاق . فنمر اليوم ليس أحسن خلقاً وأقل ضراوة من نمر الأمس ، وليس أسد اليوم أعف عن افتراس الظباء من أسد أمس . وما زالت الطبيعة ماكرة فى أساليبها مخاتلة خداعة . وأظهر ما يظهر ذلك فى الإنسان أسمى مصنوعاتها وتاج فخارها ، وتاريخ الإنسانية فى نظر المتشائم لا أثر فيه لغاية أدبية أو حكمة معقولة . وإنما أدواره المسلسلة تراجيع محزنة معادة وقصص مملة مكررة . ملطخة بوصمة الظلم مدموغة بانتصار الباطل وانخذال الفضيلة .

ولو عاد إلى الحياة فى وقتنا الحاضر رجل متشائم عميق فى تشاؤمه مثل أبى العلاء المعرى ورأى التقدم المطرد . وتحسن أحوال الطبقات . وتوفر أسباب الراحة فى المدينة الحديثة . ومحاولة رفع دعائم المجتمع على أساس علمى معقول أكان يرضيه ذلك ويملأ نفسه بالسرور . ويغريه بالعدول عن تشاؤمه ونبذ سوء ظنه بالناس والحياة ؟ وهل كانت تعجبه وتملؤه ثقة بالإنسان وعظمته الكشوف الحديثة والاختراعات الطريفة من أسلاك برقية وسكك حديدية وبواخر تمخر المحيط وتبسط سلطة الإنسان على الأزرق الرجراج وطيارات تحلق حيث مطار النسور والعقبان ؟ وهل كان يستخفه بريق تلك الحضارة ، أو كان ينقب فى زواياها باحثاً عن العيوب الكامنة وراء مظاهرها الأخّاذة وروعتها الساحرة ، فيسمع أصوات الصارخين وأنين الشاكين الذين وطئتهم العجلة فسقطوا فى الطريق يتلوون من شدة الألم ؟ وهل كانت تغيب عنه مكائد الساسة الصخابين والاستهانة بالمبادئ وتقلب الوصوليين واتخاذ المال معبوداً تقدم له القرابين وتنحر

باسمه الضحايا ؟

فى الوجود شر كثير ، وفيه كذلك خير عظيم ، ولكن فلسفة التشاؤم لا تنظر إليه إلا من ناحية واحدة وترجح جانب الشر على جانب الخير، وتغالى فيه ، ولكن مذهب التشاؤم على ما فيه من نقص وعيوب أجدى على الحياة وأعظم أثراً فى الإصلاح وتحريك العزائم من التفاؤل البليد القانع ، والعالم مدين إلى مدى بعيد للساخطين المتذمرين . وكل إصلاح يتم فى هذه الدنيا فسببه هذا الشعور بالنقص والإحساس بالألم الذى يثير شكوى المتشائمين ، ولا فضل فيه لجماعة القانعين المبتسمين إلى الحياة والذين يعتقدون أن كل شىء على أحسن ما يرام .

ومذاهب التشاؤم على مناقضته الظاهرية للدين يتفق مع مرامى الأديان فى نواح كثيرة ، لأن أكثر الأديان برغم تفاؤلها الظاهر تشاؤمية النزعة ، ومن الضرورى أن تكون كذلك ، لأن الأصل فى العبادة التزهيد فى المراغب الدنيوية وكبح جماح الشهوات واللذات الحسية ، والبحث عن الخلاص من شرور الحياة فى حياة أسمى . فالبوذية ترى أن الوجود لا قيمة له ، وفى المسيحية لا نصل إلى ملكوت السماء إلا بالتضحية والإعراض عن زخرف الدنيا ، والإسلام يعلمنا أن الحياة الدنيا متاع الغرور .

والفرق بين النظرة الدينية والنظرة التشاؤمية هو أن الدين ينظر إلى الدنيا كما ينبغى أن تكون ، وأما التشاؤم فإنه ينظر إلى الدنيا كما هى . وهناك فرق آخر ذو بال وهو أن المتشائم ينظر إلى الفرد ومصيره ، فى حين أن الدين اجتماعى النزعة ، والتشاؤم يتناول فى الغالب وجودنا الفردى لأن لكل إنسان دنيا فى نفسه وعليه خلاص نفسه ومنجاتها ، وهو يألم فى سبيل ذلك ويلقى عنتاً ، ولا معنى للضرر يلحق الإنسان لتستريح الجماعة ، والرابطة الاجتماعية عند المتشائم هى رابطة الشقاء المشترك .

والتفاؤل فى كثير من الحالات ضرب من اليقين لا سند له من المنطق ولا دليل عليه من التجربة ، وهذا هو سر قوته الجبارة المكتسحة التى ترغم الإنسان على أن يحرص على الحياة حتى وهو يعيش أدنأ حياة ، وتبث فيه الأمل وهو فى أبعث الحالات على اليأس . والذين يشعرون بقوة هذا الإحساس التفاؤلى ويرون فى كل نكبة تصيبهم بركة فى ثوب مستعار يغبطون على ذلك ، وقد تتاح للمتشائم السعادة فى حياته ، وإن كانت سعادة يمازجها نوع من الأسى الصامت والحزن المكبوح ، ولا نزاع فى أن للصحة والمزاج دخلا كبيراً فى ذلك .

والآن أيهما على حق : التفاؤل أم التشاؤم ؟ أرى كليهما على خطأ فى التعميم ، وكلاهما ينقصه استيعاب الحياة من جميع نواحيها ، وخطل من فلسفة التشاؤم أن تسفه منطق الطبيعة ، وأن توازن بين تفكيرها المحدود وتفكير الكون فى أغراضه البعيدة وغاياته الأبدية الشاملة . وإذا كنا نجهل غاية الكون فكيف نقضى إذن باضطراب منطقه ، ونقصره على مقاييسنا الأدبية وهى نفسها عرضة للتبديل والتنقيح . وخطل كذلك من فلسفة التفاؤل غفلتها الظاهرة عن أحزان الحياة وتعمدها نسيان أن الحزن فصل عظيم من فصول قصة الروح البشرية المشجية فى هذه الدنيا ، وأننا لا نصل إلى مدينة السلام والطمأنينة إلا بعد أن نجتاز الصحراء القحلاء ، وما دام فى الحياة ظل وضوء فإن ترجيح جانب من جوانبها على الجانب الآخر مناقشة جدلية غير مجدية . ومن ذا الذى يستطيع أن يقيس قمم السرور الشاهقة أو يسبر أغوار الشقاء الإنسانى العميق ، ومن لا يعرف خير الحياة لا يعرف شرها ، ومن لم يكابد ألمها لا يتذوق لذتها ، فنى التشاؤم حق جزئى ، وفى التفاؤل كذلك جانب من الحق ، أما الحق المطلق فيشمل الاثنين .

الحياة والنجاح

كلمة النجاح على إطلاقها يكتنفها الغموض وينقصها التحديد ، وليس هناك مقياس ثابت للنجاح متفق عليه ، فما هو فى رأى بعض الناس من قبيل النجاح قد يكون فى نظر غيرهم إخفاقاً ذريعاً ، وسأعمل فى بادئ الأمر على تبديد بعض السحب المتجمعة فى جو الموضوع قبل المضى فى الحديث عنه .

إن المواقف التى يقفها الإنسان من الحياة على اختلافها وتباين طبيعتها لا تعدو أربعة مواقف رئيسية وهى موقف الرجل الذى يعوّل على العاطفة والإحساس ويقفه من الحياة رجال الفنون والآداب على اختلاف أنماطهم ، وموقف الرجل الذى يعول على التفكير والتأمل وهو موقف العلماء والفلاسفة والمفكرين على اختلاف طبقاتهم ، وموقف الرجل العملى الذى يرجح جانب العمل على الفكر والعاطفة . ولا يتقيد كثيراً بقوانين الأخلاق . وهو موقف السياسيين ورجال الأعمال ، وموقف العملى الأخلاقى . وهو موقف يتمثل بأسمى مظاهره فى حياة الأنبياء والقديسين والشهداء .

وهذه المواقف قائمة على تنوع الملكات الإنسانية الأصلية ، فإنها إما أن تكون ملكات فنية خالصة . أو فلسفية أو علمية أو عملية أو عملية أخلاقية . وكل ضرب من ضروب النشاط الإنسانى يمكن رده فى شىء يسير من التحليل إلى إحدى هذه الملكات . ولاخفاء فى أن هذه الملكات لا تبدو فى الأشخاص منفصلة بارزة الحدود ، بل قد تلتقى فى الأفراد بنسب متفاوته ومقادير

مختلفة ، ولا مفر لمن أراد أن يفهم الحياة عن طريق التحليل والمنطق من الاعتماد على أمثال هذه التقاسيم ، أما الذين يحاولون أن يعرفوا الحياة عن طريق الإدراك المباشر مثل الصوفية فلا حاجة بهم إليها .

والنجاح فى كل ميدان من الميادين التى يعمل فيها النشاط الإنسانى المستمد من هذه الملكات المتنوعة يختلف عن النجاح فى الميادين الأخرى . فنجاح الفنان فى فنه معناه توفيقه فى تجويده ، واقترابه من مثله الأعلى ، وتقدير كبار الناقدين والعارفين له . ولكن هذا النجاح الباهر فى عالم الفن قد يكون مدعاة لإخفاقه فى الحياة العملية إخفاقاً مؤلماً متصلاً . فكم من شاعر أو مصور أو موسيقار ألهاه إخلاصه لفنه وتفانيه فى إجادته عن اقتناص الفرص واصطناع الوسائل المجدية لنيل الشهرة واجتذاب الأنظار فظلت عبقريته منكورة ومواهبه غير مقدرة حتى وافاه الموت ولم تعرف قيمته إلا الأجيال التالية لجيله .

كذلك المفكر . فإن مقياس نجاحه هو تفوقه فى تفكيره ، وتعمقه فى بحثه ، وقدرته على الانتهاء إلى أفكار غير مسبوقة ، والكشف عن عوالم الخواطر المجهولة ، ولكن هذا الإخلاص فى البحث والتعمق فى الدرس والتوفر على حياة الفكر ، قد لا يمكنه كل التمكين من النجاح الدنيوى ، ولا يمهد له أسباب اغتصاب المجد والشهرة والتألق فى المجتمعات ، ولو أنه حرص على ذلك لجار على تفكيره وصرف نفيس وقته وعظيم مجهوده فى مظاهر جوفاء ومجاملات وأحاديث مملة سخيفة ، التماساً للنجاح اللمّاع وتوسلاً إلى الشهرة البراقة . وإخلاص المفكر لتفكيره قد يجلب له الأعداء . ويخلق الخصومات التى تعوق تقدمه وتعرقل سيره ،وأضرب مثلا لذلك فيلسوف ألمانيا الكبير آرثر شوبنهاور ، فقد كان رجلا مخلصاً فى تفكيره إلى أقصى حدود الإخلاص ، صادقاً فى التعبير عن وجهة نظره ، لا يتملق حاكماً ولا عظيماً . ولا يترضى عاطفة وضيعة أو نزعة سائدة ،

وإنما يمضى مع منطق تفكيره حتى النهاية ، فهو مثل أعلى للمفكر المخلص ، ولكن هذا الإخلاص الذى لا تشوبه شائبة ، والترفع عن الدسائس ، وتملق الجماهير واصطناع الأساليب الدنيوية ، وتقصيره فى أساليب الدعاية والإعلان عن النفس كان ذلك كله من أقوى أسباب إخفاقه والإعراض عن فلسفته ، وقد عاش أكثر عمره مجهولاً من معاصريه غير معترف به من الجامعات ، وغير مقدر من أضرابه ولا من الجمهور ، وذلك فى عصر نهضة فكرية مأثورة . ولولا أنه كان فى سعة من العيش بفضل ما ورثه من أبيه لساءت أحواله وانتهت حياته بكارثة فاجعة . ولم يتيسر لألمانيا المفكرة الفلسفية أن تعثر على هذا الكنز الحقى الدفين وتقدر هذه العبقرية النادرة المثال إلا فى السنوات القلائل الأخيرة من عمره الطويل ، وذلك فى حين أن غيره ممن هم أقل منه فى مرتبة التفكير وصحة الرأى كانوا موضع التقدير ومناط الأعجاب .

ونجاح السياسى معناه تحقيق غاياته ، وتنفيذ خططه السياسية دون أن يبالى بالوسائل والأساليب ، فكل وسيلة عند مشروعة ما دامت تقرّبه من غرضه ، وتعينه على تحقيق مطلبه . أما العملى الأخلاقى مثل المصلحين والزعماء الأخلاقيين فطريقه كثير العقبات ممتلئ بالصخور والأشواك ، لأنه لا يريد أن يشترى النجاح بأى ثمن ، وإنما يريد أن يحقق مثله الأعلى فى الفضيلة ، ويحاول أن يشق طريقه فى الحياة متغلباً على مغريات الدنيا مستعلياً على الشهوات ، ومقياس النجاح عنده هو شدة استمساكه بمبادئه ، وتعلقه بمثله الأعلى ورفضه كل ضروب المساومة . وسعادته هى أن يضحى بكل شىء فى سبيل تحقيق غايته . وقد يفوت عليه ذلك كل فرصة للنجاح الدنيوى والسعادة التى يفهمها الناس والراحة التى ينشدونها ، وسيرة الأنبياء والشهداء غاصة بما استهدفوا له من صنوف الإيذاء وألوان الآلام .

وهذه هى مظاهر النجاح فى معناه الواسع العام ، ولكن للنجاح معنى آخر

محدوداً هو الذى يقصده أكثر الناس فى أحاديثهم الدارجة ، ومن أمثلة هذا النجاح المعهود نجاح التاجر فى تجارته وتزايد أرباحه ، وتوفيق الموظف فى وظيفته ووثوبه إلى أسمى المناصب ، ونجاح أصحاب المهن الحرة والصناعات المستقلة . وظروف العالم الحالية أكثر مواتاة للنجاح والتبريز فى هذه الميادين ، لأن نزعة العصر الديمقراطية ، وعدم تعليقه كبير أهمية على مسائل الحسب والنسب ، قد فتحت الأبواب لجميع الطبقات . والنجاح فى تلك الميادين يتوقف جزء منه على الظروف والملابسات وجزء آخر على كفاية الشخص ومجهوده ومضاء عزيمته وإرهاف ملكاته . وأقوى الأسس التى يقوم عليها النجاح فى أمثال هذه الميادين هى الواقعية ، وأقصد بها القدرة على فهم الأشياء على حقيقتها مجردة من الأوهام والخزعبلات ، ثم الصبر على العمل ، والنشاط المثمر الخصب ، لأن من الناس من ينفق جهده فى أشياء تافهة غير جديرة بالعناية ، والمحافظة على الصحة وسلام البنية ، لأن الرجل الذى تعتل صحته ويتعكر مزاجه يفقد فى كثير من الحالات القدرة على العمل ، ويقل نشاطه وإنتاجه ، وقد لا يتوفر على الدوام وجود العقل الحكيم فى الجسم السليم، ولكن إذا وجد العقل الحكيم فقد يضعفه سقم الجسم ويعرضه للعلل والأمراض وهذه الصفات لازمة جميعها ، لأن الواقعية أو إدراك الأشياء على حقيقتها لا تجدى إذا لم تقترن بالعزيمة الماضية ، وصدق الحكم لا يدوم إذا لم تمده الصحة الوافرة وسلامة البنية ، وتلك هى أركان النجاح ، ولكنها لا تجدى كثيراً إذا لم تؤيدها صفات أخرى ، فالنجاح فى ظروف كثيرة يتطلب شيئاً من التوسط فى المحاسن ، والاعتدال فى الصفات المرغوبة ، فهو يتطلب الإقدام والشجاعة ، ولكن على شريطة ألا يصل الإقدام إلى حد التهور والاندفاع ، ولا أن تنحدر الشجاعة إلى العناد واللجاجة . واقتران الرأى بالشجاعة من أقوى أسباب النجاح كما قال أحد من جربوا الحياة

وفطنوا إلى أسباب الإخفاق وهو أبو الطيب المتنبى :

الرأى قبل شجاعة الشجعان   هو أول وهى المحل الثـــانى

فإذا هما اجتمعا لنفس حرة   نالت من العلياء كل مكان

والعقل المهيأ للنجاح يمتاز بالمرونة ومجافاة التصلب ، ولذا قل أن يوفق أصحاب النظريات المثاليون وذوو المبادئ المتشددون ، والنجاح يتطلب الاعتداد بالنفس والاعتزاز بالكرامة ، لأن من هان عند نفسه هان أمره على الناس ، ولكن فرط الاعتداد بالنفس قد ينقلب غروراً مملولاً وثقة بالنفس عمياء تفوّت على الإنسان فرص النجاح وتلحقه بجماعة المخفقين .

وهذه هى الأوجه الزاهرة المحبوبة للنجاح ، ولكن للنجاح بعض الجوانب المستبشعة التى يعمل على سترها بعض الناجحين كأنها سر يحتفظ به ، وكما تعمد مكيافللى أن يهتك أسرار سياسة الأمراء فى كتاب الأمير فكذلك تناول هذه النواحى المظلمة الكاتب الألمانى المعروف ماكس نورداو فى مقال له عن النجاح ، فقد تخيل للنجاح مدرسة يلجأ إليها الناس ليتعلموا النجاح ويتلقوا مبادئه ، وهو يوصى طلبة تلك المدرسة بترك التواضع ، لأنه لا يجعل أحداً يعترف للإنسان بمزية ، وقد يظفر المتواضعون بعد مماتهم بلوحة تذكارية تنصب على مقابرهم ، ولكنهم لا يظفرون فى الحياة بالمال ولا المجد ، ويوصى الطلبة لذلك بكثرة التحدث عن النفس ، لأن جزءاً مما يتحدث به الإنسان عن نفسه سيظل عالقاً بأذهان السامعين باقياً فى ذاكرتهم مهما تظاهروا بالضيق والتأفف ، فامتدح نفسك ، وغال بقيمتك وارفعها إلى عنان السماء ، وأغدق على نفسك أعظم النعوت وأجل الصفات ، وأثن على مجهوداتك ، وفاخر بمناقبك وحسناتك وتحدث عن كثرة المعجبين بك ، وردد ما قالوه فى مدحك ، واخترع إذا استلزم الأمر فإن نجاحك بعد ذلك مضمون وآت لا ريب فيه ، وسيسخر منك العقلاء

المتزنون ويزدرونك ، ولكن لا بأس عليك من ذلك . فالعقلاء فى هذه الدنيا أقلية لا يؤبه لها ، ولم يكل إليهم أمر توزيع الجوائز فى حفل الحياة وسيأخذ خصومك عليك ذلك ، ولكن هذا لحسن طالعك وإقبال حظك ، لأنك تستطيع فى هذه الحالة أن تقذفهم بتهمة الحسد والكيد لك . وتكتسب بذلك تأييداً جديداً ، وسيردد الناس بعد ذلك أحاديثك عن نفسك . وكن سليط اللسان متوقحاً غير متردد فى تجريح الناس ونهش أعراضهم مرهوباً منهم . وهم سيتملقونك بعد ذلك ويتبارون فى تقديم الطاعة والقرابين لك . ولا تنتظر العدالة وحسن النية وصدق التقدير من أضرابك . فإنما همهم تكبير أخطائك . وإظهار ما خفى من عيوبك وإلقاء السدول على ما يظهر عن محاسنك ، ولا تحفل إلا بالجمهور من ناحية وبالأفراد القلائل ذوى النفوذ من ناحية أخرى ، وتكبر على من هو دونك ، وتضاءل لمن هو فوقك . وليس هذا من هين الأمور . ولكن يمكن إتقانه والتفوق فيه بطول الممارسة ومداومة التجربة .

فأساس النجاح فى رأى نورداو هو هذا الاعتداد الغليظ بالنفس . والصفاقة السافرة فى الإعلان عنها ، ومداهنة الأقوياء وذوى النفوذ . والبعد عن الصراحة فى إعلان الرأى ، ولكننا خلقاء بأن نلاحظ أن بعض الناس يغالون فى اتهام الناجحين ويسلقونهم بألسنة حداد لأنهم يجدون فى ذلك راحة وعزاء ، وتسويغاً لخمولهم وتقاعدهم ، وكل نجاح فى رأى هؤلاء «القعديين» المحدثين قرين الفساد الأخلاق والالتواء النفسى ، وإننا نخطىء إذا حكمنا على الناجحين الموفقين بما نتلقاه من أفواه حساد فضلهم وضحايا نجاحهم ، لأن نجاح شخص معناه إخفاق غيره ، ومن الملحوظ أن هناك تجاوباً بين الصفات المؤهلة للنجاح والبيئة التى يعيش بها الإنسان فقد تكون الرجولة الكاملة ، والاستقامة التامة ، والهمة العالية والذكاء الوقاد من دواعى الإخفاق فى بعض البيئات التى لا تحسن

تقديرها وتسيء فهمها ، وقد يكون الضعف والاستكانة والملق وخمود الهمة وجمود القريحة من دواعى التوفيق والنجاح ، وهذا شر ما تبتلى به الأمم ، وأقسى ما يمتحن به أفاضل الناس ويترك ألبابهم حائرة وعقولهم ذاهلة ! .

الأرستقراطية والديمقراطية
وتأثيرهما فى المجتمع والآداب والتاريخ

عندما نستعرض مختلف الشخصيات التى عملت على تقدم الفكر وإثراء الحضارة ، وكان لها شأن خطير فى تطورات التاريخ واستحالات المجتمع تبهرنا قدرة الطبيعة على التنويع وافتنانها العجيب فى خلق الصور المختلفة وإيجاد الخصائص المتغايرة ، فهى لا تخرج بدائعها كالآلة الصماء ، ولا تكررها تكرار المعامل . ومن معجزها أن ابتكارها لا ينفد ، وتجديدها لا تهمد حركته . وهذا التنويع الدائم فى حدود السلالات والأنواع من حوافز التطور التى اختلف فى تعليلها العلماء ، وإن كانوا قد اتفقوا على أن هذا التنويع من أقوى البواعث على تنازع البقاء ، وأثره فى ترقى الحضارة لا ينكر .

ولكننا إذا أمعنا النظر حريون أن نلمح خلال هذا التجديد الدائب قوالب خاصة من الخلائق متناقضة أشد التناقض تتشابه فى الجوهر والأصل ، وإن كانت تختلف فى التفاصيل والنسب . فنى كل زمان ومكان وجد فى الدنيا القديس الزاهد فى الحياة والدنيوى المتهافت عليها ، والشهيد الذى يجود بنفسه لمصلحة شاملة ، والأنانى الذى يجعل نفسه غرض الأجيال وقطب الوجود ؛ كما وجد فى الحياة الفكرية المثالى والواقعى وأنصار العقل ودعاة الإرادة والمتفائلون والمتشائمون ، ومن القوالب النفسية الهامة التى وجدت فى متباين الأمم ومتعاقب

الأجيال وأثرت تأثيراً بعيد المدى فى تكوين التاريخ وبناء المجتمع الطراز الديمقراطى والطراز الأرستقراطى ، ولكل طراز من هذين الطرازين عالم خاص من الآداب والأفكار والمشاعر تجاه الحياة والمجتمع ، والعلاقة المتبادلة بينهما تتكرر وتتجدد بتتابع الأمم وتوالى الأيام .

ويمتاز الطراز الأرستقراطى بفرديته المعتزة بنفسها المغالية بقيمتها ، وبالجرأة النادرة والتسور على العظائم ، والاستهانة بالكبائر واستسهال الصعاب وشدة التوق إلى الكفاح والمنافحة والرغبة فى اقتحام المجاهل والإتيان بالخوارق ، تحدوه إلى ذلك طبيعته السليمة وفطرته القوية وحيويته الجائشة .

وهو يجنح بطبيعته إلى الراحة والبطالة ، ويتجنب العمل المنتظم والمجهود المرهق ، والبطالة هى حالته الطبيعية كما كانت حالة الإنسان فى فجر التاريخ وباكورة الاجتماع ، والحقيقة أن كثيراً من صفات الإنسان الأول ابن الغابات المتأبدة والخلوات الأبكار الطليق من القيود الخالى من الهموم بادية فى الطراز الأرسقراطى ، وشخصية الأرستقراطى القوية التى لا يستقر تطلعها القلق ، ولا يرتوى ظمؤها إلى الأحاسيس تجعله قليل الصبر على احتمال مشاق العمل ثائراً على كل ما يستدعى متين الجلد ودائم المثابرة ، متجه الميول إلى الحياة العضوية لأنها مناط عزماته ، وميدان كفاحه .

ومما يزيد الأرستقراطى كراهة للعمل ونفوراً منه أن كل حرفة أو مهنة تستلزم أعمالاً خاصة ومجهوداً معيناً ، ولا يتوفر للإنسان إجادتها إلا بعد طول المرانة عليها ومصابرة شدائدها ، وتعويد النفس مراعاة مقتضيات أى ضرب من ضروب العمل وأخذها بمعالجة مشكلاته يستثير فى الإنسان خواطر وإحساسات ملائمة لطبيعة هذا العمل ، ويخلق جوًّا فكريًّا مناسباً له يشوه الشخصية ويحد مدى التفكير . ومن السهل أن نتعرف العمل الذى يتعاطاه الإنسان من ملامح وجهه

وأسلوب حديثة وطريقة إيماءاته . ولكن الطراز الأرستقراطى مع عجزه عن الخضوع لمستلزمات العمل المنتظم والمجهود المتواصل يملك قوة كبيرة وكفاية خاصة للتوجيه والزعامة وضم متناثر الصفوف ، وقد ظلت هذه القوة فيه سليمة لم يرتق صفوها العمل ، ولم تفل شوكتها مطالب المهنة . وقد نبغ من صفوف الطراز الأرستقراطى مشاهير الحكام وكبار القود والزعماء وأبطال المخاطر المعروفين فى التاريخ ، وهم مؤسسو أشهر الأسر التاريخية وصناع الدول الكبيرة .

وأظهر صفات الرجال من الطراز الأرستقراطى القسوة البالغة ، والضراوة الفاتكة ، والأنانية الصريحة ، والرغبة فى فرض إرادتهم وتغليب آرائهم ، ولكن هذه الأنانية الضخمة والإباء المر والخلق الوعر يكمن وراء ستار شفاف من حسن السلوك وجمال المظهر ، والتهذيب الذى لا يشوبه تكلف ، ومما يزيدهم مهابة فى الصدور وإجلالاً فى العيون ترفعهم عن الصغائر ، ومغامرتهم بالحياة فى سبيل المجد والشهرة وإيثارهم الموت على الهوان والعار ، وهم لا تحجزهم رهبة عن القصد إلى الغاية المرتسمة فى أذهانهم ، والمطلب الذى حامت عليه أطماعهم ، وقل أن يخطئهم التوفيق لأن الحياة فى حاجة إلى هذه البسالة الهوجاء التى لا يرقى إليها التردد ولا تدنو منها الوساوس .

والطراز الديمقراطى عميق الإحساس جم الإنسانية ، وفرط الإحساس يستدعى مراقبة النفس ، وضعف الثقة بها ، وكثرة التردد والعجز عن انتهاب اللذات واقتناص الفرص ، وهو بطبيعته شديد التعلق بفكرة الواجب كثير الاحترام للآداب والعرف قادر على امتلاك نفسه ، وقمع ميوله ، لا يبرم بالعمل المنتظم ، ولا يسأم الحيطة والمثابرة . ومن خواص الطراز الديمقراطى القدرة على التجديد والابتكار . أما الطراز الأرستقراطى فهو شديد المحافظة ، عدو للتغيير ، حريص على إبقاء القديم ، فهو شديد الميل إلى الرجعية . ومن متناقضات الحياة

أن من يسمونهم الضعفاء والمرضى المسترسلين مع الأحلام والمنحطين وأمثالهم من ممثلي الروح الديمقراطية هم أكبر عوامل الرقى وأقوى دوافع التقدم ، ومن التواء الرأى وقصور التفكير العمل على إبادة الضعفاء مجاراة لسنن التطور ، وتبرعاً بمساعدة الانتخاب الطبيعى بدلاً من أن نتركه يسير سيره ، ويؤدى رسالته ، ومما هو جدير بالملاحظة أن القرن التاسع عشر الذى ازدهرت فيه الروح الديمقراطية من أحفل العصور بالاختراعات والكشوف العلمية ، وكل جلائل الحضارة وبراعات الاختراع ومعجزات الصناعة لم تتم إلا على يد المرضى والضعفاء ، وذلك لأن كل اختراع هو ابن الضرورة والضعة ، وسليل الحاجة والفقر ، ومبعثه الشعور بالنقص وذل الحاجة ، والضرورة كما يقولون هى أم الاختراع ومن ثم كان الاختراع وليد الروح الديمقراطية ، وقد قضت سخرية القدر أن يكون أشد الناس مقاومة للمخترعات فى أول أمرها هم الذين يحسنون استثمارها عندما تثبت للتجربة ويذيع نفعها ، وللأرستقراطية مواهب ممتازة فى استغلال الظروف ، وانتهاب الفرص ، واستدرار النفع من مجهود الغير . وإنك لترى ذلك واضحاً كل الوضوح فى أوائل تاريخ الإسلام ، فقد كان الأمويون هم أرستقراطية قريش وسادة مكة فلما ظهر الإسلام خافوه على نفوذهم فقاوموه مقاومة عنيفة ، فلما باءوا بالخذلان ، وانتصر الإسلام ، وتوطد مركزه ، وقويت مرته ، صانعوا الظروف ، وداروا مع الأيام حتى عنت لهم الفرصة أو عملوا هم على خلق هذه الفرصة ، وانتزعوا السلطة انتزاعاً بالحيلة الواسعة ، والدهاء البعيد القرار ، واستغلو الحركة الإسلامية أشد استغلال ، وهى حركة ديمقراطية فى صميمها .

وهناك مشابهة بين الطراز الأرستقراطى والطراز الإجرامى الذى يخرج من صفوفه قطاع الطرق ، وقادة المناسر ، ورؤساء العصابات ومشاهير السفاحين .

ومصدر هذه المشابهة هو أن الغرائز الحيوانية الأولى – غرائز الإنسان قبل أن تصقله الحضارة وتقلم وحشيته القوانين – لا تزال فى كليهما على قديم عنفوانها وشديد عرامها ، وإن كان الطراز الأرستقراطى عامل بناء على حين أن الطراز الإجرامى من شر عوامل الهدم ، ومن الطراز الديمقراطى يظهر النبى والبطل والزاهد لأن هذا الطراز دأبه أن ينكر فرديته وينبذ أنانيته ويضحى بلذاته فى سبيل مثله الأعلى ومطلبه الأسمى .

وقد استلزم وجود هذين الطرازين المختلفين نشوء نوعين من الآداب سارا متحاذيين فى التاريخ ، وتجاورا فى كل مجتمع وهما آداب الأرستقراطية وآداب الديمقراطية ، فالطموح ، وترامى الآمال ، وجموح المطامع ، والكبرياء والاحتقار ، وطبيعة العدوان والقسوة ، والولوع بالسيطرة والنفوذ هى آداب الأرستقراطية ومثلها العليا ، أما الديمقراطية فمن شمائلها التواضع والقناعة والحلم والاعتدال وحب العدالة والشفقة والميل إلى التضحية ونكران الذات .

وليست هناك حدود فاصلة بين هذين النوعين من الآداب ، فمن الناس من تغلب عليه الآداب الأرستقراطية ، ومنهم من للآداب الديمقراطية فى نفسه النصيب الأوفر ، ومنهم من يجتمع فى نفسه الضدان ، وفى بعض الأزمنة تنتصر آداب الأرستقراطية ، وفى أزمنة أخرى تسود آداب الديمقراطية ومن الشعوب شعوب آداب الأرستقراطية أشد تأصلاً فى نفسها ومنها شعوب آداب الديمقراطية أبين فى أخلاقها ، وقد كان نيتشه فى القرن التاسع عشر أقوى المدافعين عن آداب الأرستقراطية عارضة وأعظمهم شاعرية ، وفى سبيل ذلك حمل على المسيحية حملته الشعواء ، واستنزل عليها صواعق غضبه ، كما كان تولستوى أعف المدافعين عن الديمقراطية مقصداً ، وأعمقهم إحساساً ، وأصحهم إدراكاً لجمال الديانة المسيحية وسمو تعاليمها .

وكما أثر هذان الطرازان فى الآداب كذلك أحدثا تأثيراً بعيد المدى فى عالم السياسة وأنظمة الحكم ، إذ انبعث منهما نظريتان طال بينهما الصراع وهما نظرية عدم المساواة فى الحكم وهى النظرية الأرستقراطية ونظرية المساواة وهى النظرية الديمقراطية .

وسمة التفوق والنبالة البادية فى الطراز الأرستقراطى هى التى قام عليها احترام طبقات الفلاحين والفقراء والمفكرين للنبلاء ، واعتقادهم بأنهم سادتهم بلا منازع . وأنهم مختلفون عنهم دماً ، وهذه العقيدة مكنت الأرستقراطية من تقرير سلطتها والاحتفاظ بمكانتها مدة طويلة ، ومن ثم نشأت فكرة السلطة المستبدة من ناحية والطاعة العمياء من ناحية أخرى ، ورسخ فى النفوس الاعتقاد الذى لاحظه توكفيل وهو اعتبار أن الذين يستبدون بنا لابد أن يكونوا أفضل منا ، وقد وجه عظماء الأنبياء مثل بوذا والمسيح ومحمد أكبر نقد للنظرية الأرستقراطية ، وأدركوا بخواطرهم الملهمة ونظراتهم النافذة ووقوفهم على أسرار القلوب وخفايا النفوس أن هذا الاختلاف والتفاوت مقصور على النسب والمقادير وأنه لا يمس الجوهر فهو يتضاءل ويفنى إزاء الوحدة الروحية التى تضم الجميع .

وعلى الاعتراف بالعجز من جانب الديمقراطية وحرص الأرستقراطية على السيطرة ، والاستعلاء قامت السلطة الأرستقراطية وتوطدت واستغلظ أمرها وثقلت على النفوس وطأتها ، وكبلت العقل وأسرفت فى الظلم والتعسف ، ومسخت فى النفوس الحاسة الأخلاقية ، لأن احتقار فكرة المساواة يقلب الاحترام ذلة ومسكنة ، ويحيل الإجلال والتقديس عبودية وضعة ، ويغرى النبلاء بالإفراط فى الكبرياء والطغيان ، والاسترسال مع جامح الشهوة وساقط النزوات ، ويمهد السبيل لإنماء فكرة أن الشعب وسيلة وليس غاية وأنه سلّم لمآرب الأرستقراطى وآلة للتسخير .

وأشد ما يؤخذ على الأرستقراطية حرصها على استبقاء جهل الجماهير ، وحرمان الشعب من نور الفكر والعرفان ، وقد قاومت الأرستقراطية فى أغلب العصور تسامى الشعب الفكرى ، ونزوعه الروحى ، وتطلعه إلى الحقيقة ، ففى أمريكا كان من المحرم تعليم العبيد معرفة القراءة والكتابة ، وكثيراً ما حاولت الأرستقراطية أن توقف نزوع البشر وطموحهم وتهبط بروح الإنسانية ، والحقيقة أنه لا ينتظر من الأرستقراطية أن تعمل على تهذيب مدارك الشعب وشحذ ذكائه ، ورياضة أخلاقه ، ورفع مستواه الفكرى ، لأنها لم تقم فى الأصل على التفوق الفكرى ، وإنما قامت على القوة العضوية والغرائز الأرضية ، وحفدة الأرستقراطى وذراريه الذين يرثون عنه المجد والشهرة إنما يتفوقون على سائر الناس بالقوة العضوية لنشأتهم فى بيئة أكثر ملاءمة للصحة ولتيسر الغذاء الصالح ، ويمتازون بالخلق المتين لأن حرصهم على مكانة الأسرة والمحافظة على تقاليدها يشعرهم باتصال حياتهم بحياة أجدادهم السالفين وأبنائهم القادمين ، وهذا الشعور يجعلهم يخشون العار ، ويحسون بدوافع المجد ، ويقدرون المسؤولية الملقاة على عواتقهم ، ولكن الذكاء والقدرة على التفكير لا تتطلب سمو المنشأ ونبالة الأصل ، والعبقرية لا تورث ، والأرستقراطية تقدر قوة الفكر وتخشاها ، لأنها لا تملك السيطرة عليها ، وهذا الخوف من سطوة الفكر أنشأ للأرستقراطية الكثير من المتاعب ، وصيرها غير قابلة لمستحدث الأفكار ، قليلة الفطنة لنوازع الروح ، لا تعلم متى تضع حدًّا لاستبدادها وهذا هو سر الثورات الخطيرة التى سجلها التاريخ ومن أشهرها الثورة الفرنسية .

ولا نزاع فى أن الأرستقراطية تقدم للعالم نماذج جذابة من السمو والبهاء ونبالة الأخلاق والشجاعة ، وهى خير من يضع الأساس لابتناء مجد الأمم ولكنها سرعان ما تصبح حجر عثرة فى سبيل التقدم وحرية الفكر .

والنظام الديمقراطى أكثر ملاءمة لحياة الفكر وحفز الهمة ، لأن الحياة بين النظراء توسع الروح ، وتستحث المواهب ، وترد على الإنسان ثقته بنفسه ، أما الحياة فى الأنظمة الأرستقراطية فإنها تغرى النفس بالتراجع والانكماش وتوهن الملكات ، وتعطل المواهب وتمحو الشعور بالكرامة الإنسانية ، ووقوف الإنسان فى متكاثف الظلال يفت فى عضده ، ويحلل من بأسه ، ولا خلاف فى أن هناك أفراداً ممتازين يستطيعون اكتساح هذه العقبات ، ولكن المسألة ليست مسألة أفراد معدودين ، وإنما مسألة العدد الأكبر من البشرية الذين لم يتفوقوا فى المواهب والهمم ، والذين يتطلبون سماحة الظروف ومساعفة الأقدار ، فإن أمثال هؤلاء عندما يبصرون أمامهم بناء مشمخرًّا ، وعظمة باسقة ، يرتد طرفهم حسيراً وتضؤل نفوسهم وتنثلم عزيمتهم ، وتستولى عليهم الرهبة واليأس ، وقد لاحظ توكفيل أن جمهرة الشعب فى الأمم الأرستقراطية أكثر تخلفاً فى مدارج الحضارة من أمثالهم فى الأمم الأخرى ، والسر فى ذلك شعورهم الشديد بالتفاوت بينهم وبين الأشراف ، ويأسهم من إدراك العلى وتسنم المجد .

ويرى المفكر فى سير التاريخ أن هذين الطرازين لازمان لاطراد الحياة ورقى المجتمع ، لأن بقاء الحضارة يقوم على عاملين لامعرّ من المحافظة على التوازن بينهما ، وهما العامل الإنسانى الذى تتكفل به الديمقراطية ، والعامل الحيوانى الذى تقوم به الأرستقراطية ، وهذا الصراع الطويل المضنى بين فكرة المساواة وفكرة عدم المساواة هو الذى يميط عن المجتمع من الحين إلى الحين وخامة الركود ، وغبار الجمود ، ويعمر القلوب بالأمل ويدفعها إلى الإقدام والعمل .

الجسد والروح
والأنانية وتحقيق الذات

يعزو بعض الأخلاقيين قصور الإنسان عن بلوغ الكمال ، واستجابته لداعى الهوى ، وقابليته للسقوط ، إلى تغلب الجانب الحسى من الإنسان على الجانب الروحى ، وذلك لأن الشهوات تعتاق تقدم الروح ، وترصد له الموانع والعقبات ، ولو تخلص الإنسان من إسار الجسد لاتسعت حدود حياته ، ورحبت آفاقها ، ولولا الجسد لما تكدرت الطبيعة الروحية ، وظلت صافية لا يميل بها مميل ، ولا تستذلها شهوة .

وتاريخ كل إنسان حرب لا مهادنة فيها ولا سلام لمقاومة طائش الرغبات ، وهوج العواطف ، بل هى حرب بين قوتين غير متعادلتين ، إحداهما كاملة الأهبة ، بصيرة بمواضع الهجوم ، ونواحى الضعف ، والأخرى ضعيفة الحول قليلة الحيلة ، لأن إجابة مطالب الجسد سريعة مباشرة ، وتلبية مطالب الروح عسيرة بعيدة المنال ، وتقدير الخير والإحساس بجمال الحياة الروحية يحتاج إلى رياضة شاقة وشحذ للذكاء وعزيمة مصممة وجأش ربيط ، والحياة تسير فى بادئ الأمر سيرها الطبيعى فإذا سمت وتهذبت بدأت سيرتها الروحية ، فحياة الطفل الناشئ أو حياة القبيلة البدائية شبيهة بحياة الحيوان ، فهى حياة تستبد بها الميول الجسدية قبل أن يعلن العقل سيطرته ويتم تهذيب الروح . وما دام الأمر

كذلك فمن السهل أن يذهب بنا التفكير إلى أن الإنسان إذا أراد أن يسمو بالروح ، وينشد الكمال ، فلا مفر له من قمع الشهوة ، وتعذيب الجسد استنقاذاً للروح ، واحتفاظاً بحرية العقل ، ومن هنا نشأت فكرة الزهد ونمت وترعرعت وازدهرت وبسطت ظلالها الكثيفة وسلطانها الضخم ، واشتد الميل إلى الانصراف عن مناعم الحياة ، ومفاتن الوجود ، واعتبارها رجساً من عمل الشيطان ينبغي لكل من أراد أن يفتدى روحه ، وينجو بنفسه الفرار من غوايته ، واتقاء شباكه ، وأكبر انتصار يحرزه الإنسان في هذه الحياة الفانية هو التغلب على الجسد ، ونبذ مسراته وإخماد حيويته .

وإنك لتلقى صوراً شتى وضروباً مختلفة من هذا المظهر فى متفرق الأزمنة ومختلف الأمكنة ، وتصادفه قاعدة للحياة وقانوناً مطرداً فى الهند بين البوذيين وعند بعض الطوائف المسيحية ، وتاريخ الثقافة الغربية من القرن الرابع إلى أواخر العصور الوسطى يريك العجب العجاب من تأثير فكرة الثورة على الجسد ، ويكشف لك عن مظهر مروع من مظاهر تلك الحرب الشعواء التى أعلنت على الأهواء والشهوات ، ويريك كيف استشرى هذا الداء الوبيل ، وذاعت عدواه من مكان إلى مكان دون أن يصده حاجز ، وكيف أذبل كل نضارة ، وعصف بكل جمال ، وشوه كل متعة ، وكاد يقضى على الحضارة ، ويقبر النفوس ، لولا نهوض أحرار المفكرين ، وثورتهم على سننه وشرائعه .

وعندما نكر الطرف فى نواحى الماضى ، ونتأمل هذه الحالة الفاجعة يخالجنا الأسف ، ويحتوينا العجب ، الأسف لهذه الضحايا البشرية التى ذهبت فريسة فكرة خاطئة ، والعجب لأن ذلك مخالف لكل المبادئ الأساسية التى تقوم عليها الحضارة ، لأن الحضارة قائمة على الرغبة فى إطالة الحياة والعناية بها وتعميقها وتخفيف ويلاتها وجعلها جميلة محبوبة ، والكفاح المستمر بين الفرد والفرد والأمة

والأمة سببه الحقيقى هو رغبة كل فرد فى أن يزيد ثروته ، وينمى ممتلكاته المادية والروحية حتى يحصل على أوفى نصيب من الحياة بتقليل الآلام ، وتوفير اللذة ، وكل مخلوق يحاول أن يعب من المسرات وينعم باللذات ، ويتملى من جمال الحياة ، ويحظى بالسعادة ، على حين ترى هؤلاء الصادفين عن الحياة يزيدون حياتهم ظلاماً وضيقاً ، ويفرون من اللهو البرىء والسرور الطبيعى فرارهم من الوباء ، ويأبون إلا أن يزيدوا هذه الحياة الحافلة بالمتاعب والهموم بلاء على بلاء، وكمداً على كمد .

تلقاء هذه الحالة النفسية المخالفة لمقتضيات الحضارة ومطالب العقل يجب أن نتريث قليلا لنرى علة نشوئها ونعرف أهى جنون فجائى وهوسة عارضة وكيف وقع تحت تأثيرها رجال لا نشك فى نبل نفوسهم ، وعظمة أخلاقهم وجلال تضحيتهم .

منذ بدأ الإنسان يأخذ بأسباب الحضارة ، ويتدرج فى الرقى ، وتشتد به الرغبة فى المعرفة ، معرفة نفسه ومعرفة ما حوله ، نشأ فيه عاملان ، عامل الرغبة فى طلب « السبب » أو « العلة » وعامل الرغبة فى فهم « الغاية » فالإنسان كلما صادفته صعوبة أو عرض له مشكل محير جعل يسأل نفسه ما السبب الذى جعل الأشياء هكذا وما الغاية من وجودها ، ويتردد بين « من أين » و « إلى أين » ، وهناك فارق كبير بين هاتين المسألتين ، لأن المسألة الأولى مسألة منطقية ، وطلب حلها مسألة تلتقى فيها الآراء ويتفق عليها ، أما مسألة الغاية فهى مسألة أدبية أخلاقية متوقفة على درجة الإنسان من الرقى ، ونصيبه من الإدراك . وقوانين المعرفة المسيطرة على العقل تتطلب أن يكون لكل شىء سببه ، ولا يمكن أن نتصور شيئاً ليس له سابق سبب ، ويمكن أن نتصور الدنيا حلقة متصلة من الأسباب دون أن يكون لها غاية ، ولكن هذا لا يرضى فى نفوسنا الحاسة

الأخلاقية لأن الحياة بلا غاية فى نظرنا باطل الأباطيل وقبض الريح ، وافتراض غاية للحياة لازم من وجهة النظر الفردى لأن حياة الفرد مرة قاسية ، ومعرفة الأسباب لا تقنع القلب ، ولا تشفى الغلة ، ولا مفر لنا من أن نتساءل دائماً ما هى الغاية ؟ .

والبعض عندما يعجزون عن إدراك هذه الغاية يستولى عليهم اليأس ، ويعتقدون أن الإنسان كالحيوان يأكل ويشرب ويلهو وغداً يطويه الموت ويغرقه العدم ، فمن كان نصيبه من الحياة حسناً فليهنأ به ، ومن ساء منها نصيبه فليألم فى صمت لأنه لا حق ولا عدالة ولا غاية فى حكومة الدنيا وما هى إلا سلسلة أبدية من الأسباب .

ولكن هذه الفلسفة اليائسة الحزينة التى تجرد الحياة من البهاء ، وتنفى عنها أسباب العزاء لا ترضى الكثيرين ، إذ لا يجدون فيها بلسماً لآلامهم ولا مرهماً لجراحاتهم ، لأنها تترك الإنسان على عجزه ووهنه وقصر حيلته منفرداً مع الفناء يواجهه من ناحية الأبد القصى ، ومن ناحية الأزل السرمدى ، وهنا يفر الإنسان من هذا الموقف الذى يصعب احتماله ، ويصور لنفسه وجود عالم غير هذا العالم ، وينقل محور اهتمامه من الجسد إلى الروح ، وهذا الجسد المقضى عليه بالعدم هو لباس الروح الخارجى الوقتى ، والروح لا تموت مع الجسد لأنها ليست فانية مثله ، وهذه النفس الخالدة هى الجديرة بالرعاية ، والخليقة بالتمجيد ، ولها مستقبل زاهر فى عالم أصفى من هذا العالم ، وفى حياة أسعد من هذه الحياة وادى العبرات ومراح الأباطيل والخيالات ، والآن وقد قسم الإنسان نفسه إلى جسم وروح يسترسل مع منطق هذه الفكرة حتى يرسخ فى نفسه الاعتقاد بأن الجسد هو عدو الروح الأبدى ، وخصمها اللدود ، وأنه هو الذى يقطع عليها

سبيل الكمال المنشود بمطالبه الحقيرة وغاياته المسفة ، فعلى الروح إذن قهره وإذلاله .

وغير خاف أن المقصود بهذه الفلسفة هو العزاء والسلوى ، ولذلك كلما تفاقت أحداث الحياة ، وعظمت ويلاتها ، وضاقت سبل الفرج اشتدت الحاجة إلى هذا العزاء وقويت الرغبة فى إماتة الشهوة واجتثاث أصولها ، ويبدو ذلك واضحاً فى العصور السود المظلمة عندما يغمر الإنسانية الشقاء ، وتطغى عليها البأساء والنوائب دون أن تجد مخلصاً .

والمشكل الآن هو : هل قضى على هذين العنصرين المكونين للإنسان – العنصر المادى والعنصر الروحى – أن يظلا متضادين متعاكسين لا تطيب لأحدهما الحياة إلا بسحق الآخر؟ إنى أعتقد بإمكان التوفيق بينهما ، وأرجح أن الملاءمة بينهما ليست من قبيل المساومة الحقيرة أو المحالفة الموقوتة بين الخصمين ، وإنما هى وحدة داخلية لازمة لأن العامل الروحى يستطيع أن يرسل أشعته فى نواحى الحياة ليطهرها ويسموبها ، وهذا التحالف لا يدنس الروح وإنما يسمو بالجسد ، وعندما يكمل كل منهما الآخر يدنوان من الكمال ، وإذا لم أكن قد أسأت الفهم فإن مثل هذا التوفيق بين مطالب الروح ومطالب البدن هو ما رمى إلى شاعر الهند العظيم تاجور فى كتابه القيم «سعد هانا» .

ومما يدعو إلى التشكيك فى الرأى القائل إن مصدر سقوط الإنسان هو الجسد كون كثير من العيوب والنقائص الأخلاقية لا صلة لها بطبيعة الإنسان الحسية ، مثل الكبرياء والطمع والبخل والأنانية والحسد والانتقام ، بل بعض اللذات الحسية تستهوى الإنسان لبواعث غير حيوانية ، فالإنسان قد يتعاطى المسكرات لينسى همومه أو ليستحث خواطره ، وبعض العيوب الأخلاقية تُقاوم الميول الجسدية وتفوقها ، فإن البخيل قد يسبق الزاهد المتعبد فى الحرمان وإنكار

النفس ، ومن ثم تبدو لنا جلية ناصعة هذه الحقيقة التى كلف جهلها الإنسانية الكثير من الآلام والعذاب والمسخ والتشويه ، وهى أن إخماد الرغبات الطبيعية لا يجيء بالغاية المنشودة ، بل ربما جاء بنقيضها ، وللرغبات الإنسانية شأن كبير فى الحياة الأدبية والروحية ، والجسد الذى نحاول قهره وإذلاله يمكن أن يصير أكبر نصير للروح فى مطالبها ، واستغلال الميول والشهوات وتسخيرها فى خدمة الغايات السامية قد يأتى بأعظم النتائج فى الحياة الأدبية والحياة الروحية ، وطبيعة الإنسان الحسية وتركيبه العصبى وحواسه ومشاعره وشهواته ومراغبه ، وعلاقته بالوسط المادى ليست فى نفسها شرًّا ولا خيراً ، وإنما ملاك الأمر على الانتفاع منها وكيفية التصرف بها ، فإذ اعتبرت وسيلة من وسائل الروح فإنها تجتلب المواد التى يمكن أن يحولها العقل أفكاراً نبيلة ومشاعر سامية ورغبات إنسانية ، ونحن نعلم كل ما نعلم عن الطبيعة من طريق حواسنا ، فكل ما يسحرنا جماله ويبهرنا جلاله إنما هو مواد خام زودت الحواس بها العقل ليصوغها . ولا يعزب عن البال أن الحياة الأدبية الروحية أساسها الحيلة الطبيعية المادية ، فالحياة العائلية مثلاً التى يحيا فيها الفرد فى حياة غيره أساسها الخارجى قائم على لبانات عضوية محضة ، ولكن كما يحيل الفنان الأحجار طرفاً فنية رائعة ، كما تخرج قوة النباتات الحيوية من الثرى الوضيع الزهرة والفاكهة . فكذلك حياة الزواج تحيل اللبانات والأهواء والشهوات ميولاً نقية وعواطف رقيقة يقوم عليها الشعور القومى والعواطف الإنسانية التى تتكون منها لحمة حياتنا الاجتماعية وسداتها .

وليست الحياة الروحية الحقة هى الحياة العاطلة من الميول والأهواء فإن أنبل الطبائع الإنسانية وأبطال التاريخ وأعيان الوطنية وأحباب الإنسانية كانوا جميعاً من ذوى الإحساسات الحادة المرهفة ، بل إن جانباً كبيراً من عظمتهم كان

مصدره شدة نبض العاطفة الإنسانية فى نفوسهم ووفرة إحساسهم . وليست الأهواء العارمة والميول العنيفة هى سر عظمتهم ، وإنما سرها هو أن المبدأ الأدبى وقوة الإرادة والنزعة الروحية مكنتهم من السيطرة على هذه الأهواء المحتدمة وتحويلها إلى قوة فى خدمة الغايات العليا ، وسر القوة على تحقيق المثل الأعلى للطبيعة الإنسانية كامن فى الإرادة لا فى سحق البدن والإسراف فى تعذيبه ، والإرادة الخيرة ترى سعادتها فى العمل على إدراك هذه الغاية السامية ، كما أن الإرادة الشريرة هى التى تجد لذتها فى الغايات الشخصية المحصورة والمآرب الوضيعة ، والصلاح الحق هو التحقيق الصادق للنفس ، والفساد العضال والسقوط المزرى هو التأكيد الزائف لها.. واعتبار تحقيق الذات أسمى غاية فى الحياة ليس معناه إرجاع الخير إلى بواعث الأنانية ومخالفة فكرة نزاهة الخير ونقاوة الفضيلة ، ونقض الرأى القائل بأن إنكار الذات هو أسمى ضروب الفضيلة وأن تضحية الشهيد ونكران القديس لذاته وتناسى البطل لمصلحته هى أسمى أفعال الإنسان ، ولا مفر لإزالة اللبس من التفريق بين الأنانية وتحقيق الذات لأنهما مختلفان كل الاختلاف ومتناقضان أشد التناقض ، وقد أهمل بعض الأخلاقيين هذا التفريق ، وقالوا بنظرية الأنانية العامة ، وهى التى تركز كل أعمال الإنسان دقيقها وجليلها وشريفها ووضيعها على أساس الأنانية العامة ، وتردها إلى بواعث المصلحة ودوافع اللذة ، فكل عمل يعمله الإنسان إنما يبتغى به المصلحة ويلتمس من ورائه اللذة ، وفعلنا الشيء معناه أننا نستريح لأدائه ونستعذب القيام بأعبائه ، ونفس الأعمال الشاقة المؤلمة إنما نباشرها لأننا نستهين فيها بالآلام ، ولذة الاقتناع ترجح بحرقة الألم ، وقد نتناول الجرعة المرة من الدواء لأن لذة الاستمتاع بالصحة أعظم من تجرع المرارة ، وقد تطيب نفوسنا لتحمل المتاعب فى سبيل من نحب ، فالوطنى الذى يشقى لأجل مبدأ أو الشجاع الذى

يقدم على التضحية والشهيد الذى يجود بحياته لاستمساكه بعقيدته يستشعر كل منهم لذة تفوق الألم الدامى الذى يقاسيه . وما دام السرور يدخل فى كل باعث إنسانى وما دامت التضحية نفسها دثاراً لإمتاع النفس فالأنانية إذن ثابتة وطيدة ، ولكن كل هذا الخلط ناشئ من عدم التفريق بين الأنانية وتحقيق الذات ، وقد يستخفنا السرور لتحقيق رغبة ، ولكن يلزم أن تكون هناك غاية مطلوبة قبل أن نستشعر اللذة فى إدراكها ، وليس مما يقلل من قيمة الخير ارتياحنا لعمله ، كما أن الولوع بالإساءة والغرام بالشر من أهم الدلائل على ضعة النفس .

ولكن إذا كانت أعمال الإنسان هى تحقيقاً للذات من بعض الوجوه ، فكيف يكون تحقيق الذات مقصوراً على الأعمال الخيرة ؟ والجواب عن ذلك هو أن ما ينبغى تحقيقه هو النفس العالمية لا النفس الفردية . وليس معنى ذلك أن كل عمل يتجه إلى مصلحة الفرد يسمى أنانية لأنه إذا كان المقصود بهذا العمل أن ينمى الفرد استعداده ويكمل من ثقافته ليكون أقدر على النهوض بالغايات الكبيرة والأعمال الباهرة فإن هذا يعد من أشرف الأعمال . وأقل الناس نصيباً من الفهم وأضألهم عقلاً يمكن أن يسمو فى ضوء الواجب وعلى هدى الحب ، ولكن لا خلاف فى أن السياسى المدرب ، والشاعر العبقرى ، والفنان الموهوب ، والخطيب المصقع يمكن أن يقوم كل منهم بقسط أوفر ، وأن يقدم تضحيات أغلى قيمة وأبعد أثراً ، وكلما عمل الإنسان على النهوض بعقله وجسده وتوفير معلوماته وتوسيع ثقافته وبذل الجهد فى خلق فردية جميلة منسجمة فإنه سيقوم بأجل خدمة لحياة الفكر والروح ، ويزداد اتصاله بحياة المجتمع وحياة الإنسانية جمعاء ، والتوفيق بين نوازع الروح ومطالب البدن هو الأساس الذى تقوم عليه هذه الحياة الإنسانية الخصبة العالية .

الفكر والمزاج

تأثير المزاج على التفكير من الأمور المشاهدة المعروفة ، ضمّنها أحد كتاب القرن الثامن عشر قوله : «لقد وهب الإنسان العقل ليمكنه من اختلاق الأسباب لما يريد عمله» . وقد كانت جمهرة المفكرين الذين تعودوا التفكير فى ضوء الكتب أكثر مما تعودوا أن يفكروا فى الهواء الطلق تعمل على إقصاء هذا التأثير ، وتتحرى إهماله والغض من شأنه لغلبة الاعتقاد بأن المسائل الفكرية منسرحة من سلطان المزاج ، وأن الفكر النقى فى خلوصه وصفائه لا تشوبه شوائب المزاج ولا تعلق به كدرته ، وإلا فقد مكانته ومزية تجرده ، وقلت الثقة به والتعويل على أحكامه ، ولكن المرجح الآن أن الفكر والمزاج متداخلان ممترجان ، ولا سبيل إلى فصل أحدهما عن الآخر ، فليس هناك فكر نقى النقاء كله كما أنه ليست هناك رغبة خالية الخلو كله من أثر الفكر ، وإن كان هذا لا ينفى وجود فارق أصيل بينهما ، وهو أن الفكر عام على حين أن المزاج فردى .

وقد ألِف المفكرون أن يستعينوا على فهم النفس الإنسانية بتقسيم العقول البشرية أقساماً متباينة ، من أشهرها تقسيم العقول إلى عقل أفلاطونى وعقل أرسطوى ، أى عقل مولع بالمثالى ، وعقل موكل بالعملى ، ومن أبرع تلك التقسيمات تقسيم وليم جيمس العقول إلى عقل لين وعقل صلب ، فأصحاب العقول اللينة تهيمن عليهم النزعة المثالية وإيثار الاستبشار والتفاؤل والميل إلى الدين

والقول بحرية الإرادة والتصديق بمذهب الوحدة ، وأقصد به رد الأشياء كلها إلى أصل واحد ، وأصحاب العقول الصلبة تجريبيون حسيون نزعتهم مادية ومذهبهم الشك والتشاؤم ، ويمكن أن نلمح من خلال ذلك أن العقيدة الفكرية التى ندين بصحتها والآراء التى نستمسك بها ونحرص عليها ، وما يعن لنا من الخواطر فى مختلف الشؤون ، متأثر إلى حد كبير بأخلاقنا ، مستمد من نظرتنا العامة إلى الحياة ، وكل نمط خاص من العقول والأخلاق يصطحب أنماطاً معينة من التفكير وأساليب المعرفة ، فإذا عرفنا أخلاق أحد من الناس وبلوناشيمه يمكننا أن ندرك بوجه عام الآراء التى يكونها ، والأحكام التى يصدرها فى أى أمر من الأمور العارضة قبل أن يعلنها ، ولتوضيح ذلك أذكر بعض الأمثلة .

من الحقائق الملحوظة أننا إذا نظرنا إلى الطبيعة من بعض الأوجه كشفت لنا عن خطة مرسومة وتدبير محكم ، وإذا نظرنا إليها من أوجه أخرى شككنا فى ذلك وغالينا فى إنكاره ، فبعض وجوه الطبيعة تجعلنا نقول مع الفيلسوف ليبنتز « إن هذه الدنيا أحسن دنيا ممكنة » ، وبعضها يميل بنا إلى رأى شوبنهاور القائل « إنها أسوأ دنيا ممكنة » وهناك براهين كثيرة تدعم الرأى الأول ، وبراهين لا تقل عنها كثرة وقوة تعزز الرأى الثانى .

فما يدل على وجود عقل مدبر غير محدود ذلك الجمال المنثور فى نواحى الكون الوسيع ، وقد كشف تقدم العلوم الطبيعية وعلوم الحياة عن روائع فى الكون خفية ودقائق عجيبة ، تدل على نظام مبدع وإحكام بارع قد لا تكفى فى تعليله الأسباب الطبيعية ، والميكروسكوب يرينا فى كل ذرة جمالاً فريداً وبهاءً جمًّا ، وعلم طبقات الأرض ولو أنه أشاع الشك فى قصة الخليقة إلا أنه كشف عن المدى الواسع والحكمة الشاملة فى التطور ويرى بعض من يسلمون بصحة ذلك التطور وضوح دلالته على وجود قصد فى الطبيعة ، ويزيد ذلك الاعتقاد متانة

أن غريزة الأمومة تقوى عندما يكون الأطفال فى أشد حالات الضعف وفى مسيس الحاجة إلى العطف المتصل والرعاية الدائبة ، وأن الأزهار التى لا تلقح إلا بانتقال اللقاح من الذكر إلى الأنثى هى أشد الأزهار جاذبية للنحل .

وهناك كذلك من الحقائق ما يطوع لبعض المفكرين أن يروا خلاف ذلك ، وقد شبه أحد مفكرى الألمان أعمال الطبيعة وتبذيرها بمن يريد أن يقيم لنفسه سكناً يأوى إليه فيبتنى مدينة برمتها ، والعلاقة المتبادلة بين الحيوانات تنم على قسوة وظلم فادح ، وقانون تنازع البقاء وهو الوسيلة التى يحقق بها التطور غاياته يجر من المجازر الدموية والقسوة البالغة ما يجعل بعض النفوس الرقيقة تتردد فى قبول حكمة التطور والغاية الأدبية المرجوة من وراء تحقيقه . وإذا كانت المادة التى ينبعث منها الكون غير واعية فإنها قد تبدو فى صورة الزهرة اليانعة أو شكل الناب المؤلل ، ولا معنى إذن لحسابها على الشر أو لحمدها على الخير ، ويثب هؤلاء المفكرون من ذلك إلى إنكار وجود عقل مدبر .

وأخص ما يسترعى النظر فى ذلك أنه حينما يقف رجل لين العقل وآخر صلب العقل إزاء مشهد بعينه ، ويواجه كل منهما بنفس الحقائق فإنهما سيكوّنان آراء مختلفة وينصرفان بنتائج ربما تكون متناقضة ، وسبب ذلك أن للمشهد مظاهر مختلفة وجوانب متعددة يوجه كل من النظار اهتمامه وعنايته إلى ناحية منها حسب مزاجه ووفقاً لطبيعته ، فالرجل ذو النزعة الدينية يستخلص من رؤية المساء الذهبى الجميل أو الصباح الطلق الأضحيان دليلاً على وجود الله وإبداع خلقه ، ولكن الرجل القليل الإيمان بالدين ينصب فى مسمعه خلال ذلك الجمال الرائع صوت طائر تفتك به بومة أو أنة جريح يتعذب ، ويرى فى ذلك دليلاً على قسوة الطبيعة وعدم وجود عناية مشرفة عليها ، ونلحظ من ذلك أن كليهما لا تعوزه الأدلة التى يدعم بها رأيه ويسند معتقده الذى دفعه إليه مزاجه ،

فالمزاج يملك توجيه التفاتنا ، ويجعلنا نصر على جانب خاص ، ونهمل الجوانب الأخرى ، وعلى هذا الجانب المختار نشيد بناء عقائدنا وأفكارنا ، وواضح من ذلك أن المزاج يسيطر على الاختيار ، وأن الاختيار يمهد السبيل للنتيجة الفكرية ، وأفكارنا متأثرة بالمزاج إلى حد لا يستهان به ، ولا نزاع فى أن للوسط الذى ينشأ فيه الإنسان ، والظروف التى تكتنفه تأثيراً كبيراً فى صوغ أفكاره ، ولكن المزاج له فى ذلك النصيب الأوفى ، ويرينا ذلك أن العقل ليس حراً فى أكثر حركاته واتجاهاته واختيار ميادينه ومجالاته ، وما دامت معتقداتنا قائمة على دعائم المزاج ، وليس للتفكير كبير أثر فى استدراجنا إليها ، وإنما نحن مجبورون عليها بدافع من الطباع ، فما أحرانا بالتزام الاعتدال ، والعمل على سلوك محجة الإنصاف ، ومجافاة التعصب الممقوت ، والاضطهاد الذميم .

والصوفية تظهر لنا تأثير المزاج فى التفكير بصورة بارزة وضوء ساطع ، لأن من المتعارف أن الصوفية تستصحب نوعاً خاصاً من المزاج ، وهو المزاج الصوفى ، ويستلزم ذلك أن يقف الإنسان من الأشياء موقفاً لا يمكن فهمه ولا تفسيره ، وإذا لم ينجدك فيه الإحساس الباطنى والبصيرة الملهمة فلا أمل لك فى تقديره ولا تذوقه ، وما يتحدث عنه المتصوفة بعباراتهم الغريبة ورموزهم الغامضة لا يمكن تعليله بالمنطق وإلا أصبحت الصوفية شيئاً آخر غير الصوفية ، وصاحب العقل اللين يقف منها موقف الإجلال ويعتبرها فوق متناول العقل . أما صاحب العقل الصلب فتميل به طويته إلى إنكارها والتسميع بها ، ومن دأب الرجل الصلب العقل أن يحتكم فى كل شىء إلى العقل فإذا لم يستطع تبريره رفضه وأباه ، وهو يرى الصوفية وأمثالها ملجأ للعقول المتخلفة التى يتخاذل بها التفكير ، ويحسرها النظر ، وهى تحتمى به لتتقى صرامة المنطق ومجاهدة التفكير ، أما صاحب العقل اللين فإنه يرد على ذلك بأن يشير إلى التناقض الكثير فى

المذاهب الفلسفية ويتخذ منه دليلاً على أننا كلما اعتمدنا على العقل وحده أمعنا فى الابتعاد عن الحق ، والصوفية فى نظره تستنقذ الإنسان من عقم المنطق الذى يحاول أن يثبت كل شيء فينتهى به المطاف إلى أنه لا يثبت شيئاً .

وينجم من الاختلاف بين أصحاب العقول اللينة والعقول الصلبة التصادم فى الفلسفة بين الماديين والروحيين ، فالفلسفة المادية تعتبر الدنيا شيئاً مغايراً للوعى الإنسانى ؛ وترى أن ظهور الوعى الإنسانى جاء حادثة عرضية ليس وراءها معنى بعيد ولا لها دلالة عميقة ، وليس هناك دليل مقنع يسوغ لنا أن نقول باتصال هذا الوعى بجوهر الكون ومتحه من عنصره الأصيل ، والعالم يموج بمختلف المظاهر ، والوعى الإنسانى ظاهرة بين ظواهره الكثر. ومن هنا نشأ مذهب الكثرة ، وهو إرجاع الأشياء إلى أصول متعددة لا إلى أصل واحد منفرد ، والفلسفة الروحية ترى أن طبيعة الحقيقة أو باطن الواقعى مماثل للوعى الإنسانى ، ويمهد ذلك لفكرة أن الوعى الإنسانى جميعه وحدة مشتركة شائعة ، ومن هنا نشأ مذهب الوحدة . فالفلسفة الروحية ترى الوجود غريباً عن الإنسان ، وترى الإنسان محفوفاً بعزلة رهيبة لا يهون إحتمالها فتحاول أن تخلع على الكون الطبيعة الإنسانية وتسربله بها وتزخرفه بأمانيها وتوشيه بأخيلتها طلباً للعزاء ، والتماساً للسلوى . والفلسفة المادية لا تروعها فكرة صغر قيمة الإنسان فى الكون الغريب المنافر له ، وتقف بشجاعة تتلقى الحقائق الشوهاء الكالحة ولا ترى لذة عقلية فى تزييف هذه الحقائق إستنزالاً للرحمة ، وإجتلاباً للعزاء .

وقد تجلى تأثير العاطفة فى إصدار الأحكام ووزن الأمور فى أثناء الحرب الكبرى السالفة ؛ فقد كان الإنجليز مثلاً من أشد الناس إعجاباً بأساليب التفكير الألمانى ودقة علماء الألمان وصبرهم على معالجة عويص المشكلات وخصوبة تفكيرهم الفلسفى ، فلما وقعت الحرب أخذ مفكرو الإنجليز يجدون فى التفكير

الألمانى عيوباً كثيرة ، وتغير تقديرهم لأمثال وجنرونيتشه ، ولست أنتقص من قيمة هذه التقديرات ، وإنما أود أن أشير إلى أثر الحرب وما حرّكت من موجدة وحفيظة فى توجيه النظر إلى تلك الجوانب التى لم يُلتفت إليها كثيراً قبل نشوب الحرب . وقد لمح ذلك الشاعر القائل :

وعين الرضى عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

وما دمنا نفسر الكون فى ضوء تجاربنا ، وما دامت هذه التجارب يسيطر عليها إلى حد كبير مزاجنا ، فإن تأمل كل إنسان لتجاربه سيهديه إلى آراء معينة عن الحياة وطبيعة الكون ، وإذا صح أن رأينا فى الحق والخير والجمال متوقف على ما ركّب فى طباعنا وغرس فى نفوسنا ، فإن هذا من شأنه أن يميل بنا إلى التسامح واحتمال من يخالفنا فى الرأى ، لأنه إلى مدى بعيد غير مسئول عما تورط فيه مما هو خطأ فى نظرنا ، وإذا تأملنا الموقف الذى يقفه كل إنسان من المسائل التى تختلف فيها الآراء سواء أكانت أدبية أم سياسية أم علمية أم دينية ، وجدناه الموقف الذى يوائم نزعته وتمليه عليه طبيعته . ويبدو من ذلك أهمية تمكين كل إنسان من أن يطرق أبواب الأدب جميعها ، ويلج إلى حظائر الفكر المختلفة حتى يقف على ألوان التفكير التى تتجاوب مع ميوله ويروقه أن ينقطع لها ويتخصص فيها . وبواعث الإضطهاد تنشأ من عجز العقل عن النظر إلى الأشياء فى ذاتها نظرة خالصة حرة ، فإذا إعتقدنا شيئاً أحببنا أن نفرضه على الناس ونرغمهم على قبوله . والمتعصب الذى يعتقد أن الله لا تمكن عبادته إلا على نمط خاص ولا يؤمن بوجود أى نمط آخر من أنماط العبادة مستعد لأن يضطهد كل من يخالفه فى رأيه ، وحتى المبتكر المجدد لا يود أن ينفرد برأيه ولا يحب أن يخلو بالحق ، ولا يقر له قرار حتى يحمل الغير على مشاركته فيه ، وهذا هو سبب الرغبة فى الدعاوة من ناحية والميل إلى الإضطهاد من ناحية أخرى .

العاطفة والفكرة

فى مستطاع المولعين بدراسة السلائق النفسية والأنماط المختلفة من الأخلاق والأمزجة والملكات العقلية أن يجدوا فى تراجم الحاكمين بأمرهم مجالاً للدرس ومتسعاً للبحث ، وقد أدخلهم بعض الباحثين فى عداد العظماء صناع التاريخ ، ومحاور حركاته ، واستدلوا على ذلك بنجاحهم فى تحقيق أغراضهم ، وإستجابة أممهم لهم وسيرها خلفهم ، وإنى أستريب بهذا المقياس العملى « البرجماتيكى » للعظمة ، وفى إعتقادى أن محاولة بعض المفكرين قصر العظمة على أمثال هؤلاء الطواغيت من مثيرى الزوابع والأعاصير ، وسفاكى الدماء ، وهادمى الدول ، وسالبى حرية الأمم ، هو الذى جعل المؤرخ الإنجليزى الكبير اللورد أكتون يقول كلمته السائرة « عظماء الرجال جميعهم أشرار » وقد نمقت أساليب هؤلاء القوم القاسية الملتوية ، وخططهم النكراء ، ولا نقر مبادئهم الهادمة القائمة على نكث العهود ، وإنتهاز سوانح الفرص ، وإستغلال مواطن الضعف فى الطبيعة الإنسانية ، ولكننا مع ذلك لإنجاريهم فى تعصبيهم الضيق الممقوت ، وإجترائهم على الحقائق ، فلا نستطيع أن ننكر عليهم صلابة العزم ، والحيوية الجمة ، والهمة الوثابة ، والمثابرة الدائبة ، وإذا كان أساس العظمة هو الإرادة القوية المصممة ، والهمة القعساء الماضية بغض النظر عن الإعتبارات الأخلاقية ، فإن نصيبهم من العظمة موفور ، وحظهم منها كبير . وقد كان كارلايل يقدر عظمة

بعض أبطاله بما يبذلون من جهد ، وما يظهرون من تصميم وعزم وقد عرضه ذلك لنقدات لاذعة ، وجعل تقديراته موضع الشك . ولا خلاف فى أن الرجل الممتاز يحمل فى نفسه ذخيرة من النشاط وقدراً ضخماً من الطاقة ، وتتملكه فى بعض الأوقات أرواح أبعد همة وأكثر حركة من الروح الإنسانية العادية ، فلا يقوى الإنسان على مجاراته ، وقد تكون هذه الأرواح الغالبة شريرة مؤذية مخربة هادمة ، وقد تكون خيرة صالحة ، عاملة على رفع مستوى الإنسانية وتقدم الحضارة ، ولكن وجه الإمتياز وأساس التفوق هو أن هذه الأرواح تفوق القوى الإنسانية المألوفة وتسمو على قدرة الأشخاص العاديين ، وهذه القوة الخارقة العجيبة هى سر تفوق هؤلاء الرجال ، سواء غلونا فى ذمهم أو أسرفنا فى مدحهم ، ومثل موسلينى وهتلر وستالين هم من الرجال الذين تتملكهم أمثال هذه الأرواح ، أو تهفو بنفوسهم تلك الشياطين ، وقد توحى إليهم بأعمال لا نرضاها ، ولكنها مع ذلك لها قيمتها من الناحية التاريخية ، ومن ناحية الدراسة النفسية .

وقد فطن هؤلاء الرجال لمسألة نفسية هامة ، كان لها تأثير كبير فى نجاحهم ، وتهيئة الجو الذى أرادوا خلقه ، فقد أدركوا بالبداهة أو بالتفكير أن الشجاعة وإنكار الذات والتضحية مصدرها جميعاً « الفكرة » لأن الفكرة هى التى تمدنا بالتصميم ، وتغذى الإرادة وتبتعث هوامد العزيمة ، والفكرة هى التى تحفز إلى العمل وتجعله متصل الحلقات مترابط الأجزاء ، موحد الغاية ، وليس هناك شك فى أن ما يختلج بنفوسنا من الأفكار هى فى أصلها وصميمها عواطف وأحاسيس قد إرتدت ثوب العقل ، وأفرغت فى قوالب الفكر ، ولكن ليس معنى ذلك أن المشاعر والعواطف والأهواء أقوى أثراً من الأفكار ، فالشعور يمدنا بالطاقة ويحبونا الهمة التى لا تعرف الكلال ، ولكن هذا المدد سرعان ما ينقطع

تياره الزاخر ، ويغيض نبعه الفياض إذا لم تلبس مشاعرنا مسوح العقل ، ولم يشع عليها ضوء الفكر ، لأن إفاضة الصبغة العقلية على المشاعر تغنى عنها فى أكثر الأوقات ، وتكون بديلاً منها ، وقد تثيرها عندما تهدأ ، وتؤرث نيرانها عندما تخبو ، وليس فى طاقة إنسان أن يظل فى متعاقب الحالات ومختلف الظروف متقد العاطفة ، مستوفز المشاعر ، والفكرة تبقى طوال الحياة ماثلة للخاطر مستقرة فى الضمير ، وإذا أقنعنا أنفسنا بصدق الفكرة ومطابقتها للحق فإن الفكرة نفسها تبرر المثابرة ، وتحدونا إلى أعمال لا تمليها علينا العاطفة أو تدفعنا إلى القيام بها إلا فى حمى اللحظة ودرجة الغليان ، وإذا قبل الإنسان فكرة على أنها حقيقة فلا معدى له عن التأثر بها والسير فى ظلالها ، والذى يسوقه حينذاك هو ما يسمى المبدأ الثابت الباقى لا العاطفة المتقلبة الزائلة ، وسيفرض عليه المبدأ نفسه إحياء الإحساس السابق الذى كان باعث الفكرة وموحيها ، ولكن الإحساس الجديد الذى تحركه الفكرة سيكون أكرم نشأة وأصفى معدناً ، لأنه شعور طريف قد هذبته الفكرة وصقله العقل وطهره من شوائب المادة .

وفى تعزيز ذلك الرأى يقول برتراند رسل فى مقال له قيم عن الحقائق والأحلام «إن تأثير رغباتنا فى معتقداتنا من المسائل المشاهدة المعروفة ، ولكن طبيعة ذلك التأثير فى الأغلب الأعم تفهم فهماً خاطئاً ، وقد تعودنا أن نحسب أكثر معتقداتنا مستمدة من العقل ، وعكس ذلك أقرب إلى الحق ، لأن المعتقدات التى تسيرنا فى حياتنا اليومية إن هى إلا تجسيم لرغباتنا» .

ورأى رسل صحيح فى أن أفكارنا أو ما يسميه «معتقداتنا» مصدرها «الرغبة أو العاطفة» ، ولكن الرغبة فى أكثر الأحيان إذا أثرت تأثيرها وأنجزت مهمتها اختفت بعد ذلك خلف المعتقد ، وتنكرت فى ثياب العقل ، فرغبة الناس مثلاً فى إنتهاب أموال من يحسدونه على ماله الجم وثروته الواسعة ، أو فى إيذاء من

يمقتونه لانتصاراته المتوالية فى ميادين الحب، تأخذ فى الغالب صورة عقيدة سياسية أو قالب مبدأ أخلاقى أو قاعدة اقتصادية. فيصبح الغنى المحسود مبعث كراهة لأنه يمثل نظاماً سيئاً جديراً بالهدم ، ويصبح المنتصر فى ميادين الحب خارجاً على الآداب التى يجب صيانتها وإقامة حدودها ، وإذا تم للناس إقناع أنفسهم بضرورة مقاومة ظلم الذين هم موضع الحسد لثروتهم أو لتفوقهم فى الحب فإن عاطفة الحسد ترتفع إلى مستوى «الفكرة» وتستحيل عقيدة من العقائد .

وإسباغ ثوب العقل على العواطف قد يأخذ صورة العقائد الدينية أو المذاهب الفلسفية والاجتماعية والنحل السياسية ، ولكن الفكرة على توالى الأيام يدركها البلى فتفقد قوة الحركة والقدرة على الإيحاء، وهنا تحدث الحيرة ويقع الاضطراب ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش على الأهواء والميول والعواطف وحدها، ولا مفر له من أن يضمنها مذهباً من المذاهب ويصوغها فى قالب فكرى جديد .

وقد أجاد الحاكمون بأمرهم فهم هذه العملية النفسية ، لأنهم مارسوا هذه التجربة ، فهم أنفسهم قد أضفوا على شهواتهم العادية ومطامعهم المترامية ثوب العقل ، وأقنعوا أنفسهم قبل أن يحاولوا إقناع غيرهم من الناس بأنهم موفدون من قبل العناية ، وأن آراءهم وحى منزل لا يأتيه الباطل ، فلم لا يرغمون غيرهم على سلوك هذا الطريق ليثبتوا مكانتهم ويرفعوا بنيانهم؟ وهم يضعون الخطط ويحكمون التدبير ، ويوهمون أنفسهم وغيرهم أنهم يعملون لمصلحة بلادهم ورفعة قومهم ، وكثيرون من دعاة السياسة والدين والأخلاق يعملون للشهرة والمجد الشخصى ، ولكنهم يخفون ذلك ويمعنون فى تجاهله حتى يقع فى روعهم أنهم إنما يعملون لنصرة المبدأ وتأييد العقيدة .

وقد أعانت الظروف الحديثة الحاكمين بأمرهم على تحقيق أغراضهم ، لأن

التفكير الفلسفى الحديث ، والتقدم العلمى ، والأحداث السياسية الكبيرة قد فرضت على الناس الشك فرضاً ، سواء فى السياسة أو الأخلاق أو الدين ، وقد كانت أكثر الأفكار السائدة من قبل تستلزم الإيمان بالغيبيات ، فى حين أن الظروف الحديثة تغرى بالشك فى الغيبيات والتعويل على المشاهد والملموس ، ولعل ذلك نوبة من النوبات العابرة تتبعها موجة من الإيمان ، ومن أجل ذلك أصبح إسباغ حلل الفكرة على العواطف والنوازع النفسية يبدو فى صور أقرب إلى المشاهد والملموس .

وقد قدم هتلر لشباب النازى «فكرة» ملائمة ، ونظرة للحياة والكون تثير حماستهم ، وتتطلب ولاءهم ، وكل حركة سياسية مهمة فى حاجة ماسة إلى عنصر اليقين ، وقوة الإيمان ، ولا يأتى ذلك إلا بعد خلق فكرة ملائمة لها ، وقد كانت أكثر الحركات السياسية المألوفة لا تستلزم من الفرد الولاء الكامل والإخلاص المحض ، ولكن النازية والفاشية والشيوعية لا تقنع إلا بذلك ، ولا يرضيها أن يسير الفرد تحت لواءين أو أن يعبد إلهين ، ولسنا نستطيع أن نفهم شيئاً من أسرار هذه الحركات السياسية الحديثة إن لم ننظر إليها من حيث هى أديان وعقائد ، فهى لا تحتمل مناظراً ولا تطيق معارضاً ، والنازية عند الألمان دين رسوله هتلر بل هو عندهم نصف إله لا مجرد رسول ، ونجاح هتلر فى ألمانيا بوجه خاص مرده إلى هذا العنصر الدينى والعامل الصوفى ، لأن النكبة التى حلت بالألمان من جراء هزيمتهم فى الحرب الكبرى السالفة تركت الكثيرين منهم ينتظرون الخلاص ، ويترقبون الطوالع ، والطبيعة الألمانية تربة خصبة للأحاسيس الصوفية ، والأفكار المثالية ، وقد كان الشبان الألمان يتطلعون إلى شىء خيالى غامض يذود عنهم اليأس ، وينقذهم من جحيم القلق والشك ، ويقودهم إلى المجد ، ويشعرهم بقوتهم ، ويرد عليهم ثقتهم بأنفسهم ، ويدفع عنهم مخاوف

العزلة والانفراد تلقاء الهزيمة والخيبة وتصوح الآمال . وقد أدرك ذلك هذا الدرويش الجديد «هتلر» فطلب إليهم الطاعة العمياء ، والتسليم التام ليمحضهم النصح ويلتمس لهم البركات ، والألمان يفرطون فى كل شىء ، فإذا أصابهم اليأس انحدروا إلى أعمق هاوياته وأقصى قراراته ، وقد رفعهم هتلر إلى مستوى عال من الثقة بالنفس والإيمان بالقوة ، والرغبة فى التحدى والعدوان ، وإنما فعل هتلر ذلك لأنه شاطرهم شعورهم وعرف ماذا يعمل ، وكانت غريزته موفقة وإدراكه صحيحاً ، وقد فطن إلى أن القوة المادية وحدها لا تكفى لبلوغ غرضه وتحقيق برنامجه ، وإلى أن الفكرة هى التى تضم شتيت الأهواء وتجمع مختلف الصفوف .

والعقيدة الأساسية عند النازيين هى قداسة الشعب الألمانى الذى اختارته العناية لحكم العالم ، وكل قوة تعترضه إنما هى قوة شريرة ويجب سحقها بلا رحمة لأنها تعوق رسالته العالمية ، وأغراضه المقدسة السامية .

وقد حاول موسولينى أن يقوم بمثل ذلك ، فجعل من الفاشية عقيدة فى الحياة وموقفاً تجاه الكون ، واستخلص من تعاليمها تفسيراً للتاريخ ، وإيمان الفاشية بالدولة وإيمان النازية بالشعوبية وإيمان الشيوعية بالقيم المادية هو ضرب من الدين ، ولون ممتاز من ألوان إظهار الشهوات والعواطف والأهواء والمطامع فى الغلائل العسجدية والأوشحة المصبوغة ، وهو يشبه من بعض الوجوه ما يسميه فرويد بالتسامى ، وهو أسلوب ألفته النفس الإنسانية لتخدع به نفسها ، وتغالطها فى الحقائق وتسومها طلب المحال ، ولتؤمن حيث ينقصها الإيمان ، ولتعمل حيث يعوزها الحافز إلى العمل .

الرجل والمرأة والحضارة

من الحركات الاجتماعية الهامة التى نشطت فى أعقاب الحرب الكبرى وقوى أمرها الحركة النسائية ، وقد خطت قضية المرأة خطوات حثيثة مفاجئة حتى أصبحت المكانة الجديدة التى شغلتها فى طليعة المسائل التى يعنى بها المفكرون وتختلف عليها الآراء لمالها من كبير الشأن وبعيد التأثير لا من ناحية المرأة فحسب ، وإنما من ناحية الرجل ومستقبل المجتمع ومصير الحضارة ، وقد إستردت المرأة الكثير من حقوقها المسلوبة وحريتها المغتصبة ، وفتحت لها مختلف ميادين النشاط الإنسانى الاقتصادية والثقافية والسياسية ، وكانت من قبل تكاد تكون موصدة فى وجهها ، ولقد حفلت صفحات التاريخ بسير نساء ممتازات فى السياسة والأدب من ملكة تدمر إلى الملكة اليصابات ومن أسبازيا وسافو إلى مدام دى ستايل وجورج ساند ، وكثرة الملكات القديرات اللواتى أظهرن فى مسند الملك سياسة حازمة وإرادة صارمة وكفاية فوق المألوف فى تصريف الأمور ورياضة المشكلات تكاد تغرى بالظن بأن حسد الرجل للمرأة هو الذى عاق ظهورها وحجب ملكاتها ، ولقد امتاز الكثيرات من النساء بأعمال باهرة وثبتت لهن مواهب سامية حتى اضطر الرجال إلى أن يقدموا لهن الإعجاب الخالص والتقدير البرىء ، وفى الأساطير اليونانية نساء يمثلن الحكمة وضروب الشجاعة مما يدل على تأصل النبوغ فى المرأة وعراقة تقدير الرجل لها .

ولكن الإعجاب ببعض النساء النابغات وإكبار شأنهن شيء آخر غير تقدير النساء بوجه عام ، فالمرأة من قديم العصور تسام الخسف وتجشم الهول ، وهى عند القبائل المستوحشة تعامل معاملة ظالمة قاسية، وتعيش على ما يسدى إليها الرجل من عارفة وما يلقى لها من فضلات الزاد ، ولا يسمح لها بشيء من الترف والإستجام ، وتقوم بأعباء الخدمة من حمل الماء وإحتطاب الأخشاب وتجهيز الأطعمة والعناية بالأطفال ، ومما عاق تقدم المرأة مسألة الحمل وما يستلزمه من إحتجاب عن الحياة العامة وحاجة إلى الرعاية ، ومنذ إبتداء الحضارة صحّت عزيمة الرجل على إستلاب المرأة كل ميزة قانونية كانت أو إجتماعية ، وأصحر لها بالعداوة والإزدراء ، ولا نزاع فى أن كل ما يعزى إلى المرأة من وجوه النقص ودواعى الضعف ليس مرده جميعه إلى خليقتها وتركيبها الطبيعى ، وإنما مرد الكثير منه إلى المعاملة التى عوملت بها والإضطهاد الذى لقيته .

وقد رفع ظهور المسيحية من شأن النساء لأن العذراء مريم منهن ، وأحاط الجنس النسائى بهالة من القداسة ، وساعد ذلك فى العصور الوسطى فى الغرب على نشوء الأقاصيص الخيالية وإنتشار فكرة البطولة وقيامها على الدفاع عن المرأة وتقديسها ، ولكن هذا التقديس والإكبار لم يكن منطوياً على فكرة المساواة بين الرجل والمرأة ، فلم ترتض الكنيسة اختيار « بابا » من النساء ، وكانت النساء فى الأديرة ومختلف المناصب الدينية تحت سيطرة الرجال ، ولم يكن للمرأة سوى طريقين ، إما أن تكون زوجة خاضعة مطيعة ، وإما أن تلجأ إلى الدير تفنى فيه زهرة شبابها وتقضى بين أركانه الضيقة حياتها .

وغالى بعض المفكرين فى الحملة على النساء وأنكروا على المرأة كل مفخرة ورموا النساء بكل نقيصة ونبذوهن بفسولة الفكر وفساد النحيزة ، فالنساء فى رأى شوبنهاور طويلات الشعر قصيرات الرأى ، وأنكر عليهن أوتو فيننجر وجود النفس

والعبقرية والمنطق والأخلاق ، ولم تصادف هذه الآراء المتطرفة بضرورة الحال القبول التام والترحيب الكامل من سائر المفكرين ، ولكنها تبين المدى الذى إنحدر إليه تقدير المرأة عند فريق من كبار المفكرين .

والمكانة التى بلغتها المرأة فى العصر الحديث لم تأت فجأة ، بل كانت كسائر الحركات الاجتماعية نتيجة مجهودات سابقة ومقدمات طويلة ، ولقد إنبعث صوت المرأة بالمطالبة بالحقوق السياسية فى القرن السابع عشر بأمريكا إذ رفعته مرغريت برنت فى سنة ١٦٤٧ مطالبة بحقها فى النيابة ، وفى القرن الثامن عشر طلبت الكثيرات من النساء أن يكن ممثلات فى المجالس النيابية ، وفى أواخره كتبت مارى ولستونكرافت كتابها المشهور فى الدفاع عن حقوق المرأة ، وأخذت أبواب التعليم فى مختلف مراحله تفتح أمامها .

ولم يشتد ساعد الحركة ويزخر تيارها إلا بعد إستعمال البخار وتكاثر المصانع ، وهو ما يسمى فى عرف المفكرين بالثورة الصناعية ، وزادها قوة فى خلال القرن التاسع عشر ظهور طائفة من النساء النابغات ودفاع الكثيرين من منصفى الرجال ، ويضاف إلى ذلك التأثير المباشر لسريان الفكرة الديمقراطية وتغلغلها فى جميع الطبقات والأجناس ، لأن التفريق فى الحقوق بين الرجل والمرأة ينافى الفكرة الديمقراطية فى صميمها ، ويناقض فكرة المساواة ، ويهدم قواعد الحرية ، والمساواة والحرية هما الدعامتان القويتان اللتان ترتكز عليهما الفكرة الديمقراطية ، وقد شجع المرأة على الإصرار فى المطالبة بحقوقها إشتغال الكثيرات من النساء بأعمال خارج المنزل وعدم تعويلهن فى حياتهن على الآباء أو الأزواج .

ولكن برغم الحقوق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى فازت بها المرأة فإن قبولها فى المجتمع باعتبارها مساوية للرجل لا يزال موضوعاً للبحث ، فهل المرأة مساوية للرجل من الوجهة النفسية والوجهة الفكرية ؟ وإذا كان هناك فرق

بينهما فهل هو من الفروق القائمة على التفوق من أحد الجوانب والنقص من جانب آخر؟

لبحث هذه المشكلة فى العصر الراهن طريقتان ، طريقة الركون إلى التجارب والإختبارات النفسية والإعتماد على مقاييس الذكاء ، وطريقة مشاهدة ما يؤديه كل من المرأة والرجل فى الحياة وإصطناع التجرد والنزاهة لإستخلاص مقدرة كل منهما وإستعداده . والطريقة الأولى رائجة فى هذه الأيام ، وهى طريقة علم النفس التجريبى ، والنتائج التى إنتهى إليها العلم فى هذا الصدد لا تشفى النفس ولا تنقع الغلة ، فقد كان معروفاً من قبل ظهور هذه الطريقة العلمية أن المرأة معادلة للرجل فى الإحساس بالألم والحرارة والبرودة ، وقد أيد علم النفس التجريبى هذا وجعله وراء متناول الشك ، ولكن ما هو محصل ذلك؟ وماذا يمكن أن نستخلص منه؟ الواقع أن أكثر النتائج التى إنتهى إليها علم النفس التجريبى فى هذا الصدد من قبيل تحصيل الحاصل ، وإنما الذى يعنينا معرفته هو هل تفكر المرأة تفكيراً منطقيًّا مثل تفكير الرجل ، أو هل هى أكثر إدراكاً للأمور بصادق الحس وألمعية الفراسة؟ وهل هى أقل توثب خيال وأكثر واقعية وأوفر قابلية للشعور وأقدر على النظر فى دقائق الحياة العملية وأصح من الرجل حكماً على الأشياء وأعرف منه بالطبيعة البشرية ، أو أن الأمر على نقيض ذلك؟ إن العلم لم يتمكن من رفع النقاب عن أسرار هذه المواهب العقلية السامية بعد ، وليس فى مستطاع العلماء إلى اليوم إخضاعها لطرائق البحث العلمى الصارم ، ولا تزال هى مجال الروائى الموهوب والشاعر الملهم والفيلسوف الموفق ترشدهم فى نواحيها البصيرة النافذة والخيال اللامح إذا ما عزت حقائقها على العلماء وشآهم طلابها .

والتوسع فى استعمال الأسلوب الآخر ، أسلوب المشاهدة ومراقبة الواقع

واستنتاج الإستعداد والقدرات والمواهب والملكات من خلال السلوك المتباين والمواقف المختلفة يقتضي إستقصاء حالات كثيرة وجمع حقائق جمة ويستلزم بحوثاً ضافية الذيول ، ونقتصر هنا على حصر الموضوع فى ناحية واحدة ، وهى القدرة على الإبتكار ، وهل هى متساوية متعادلة فى الرجل والمرأة ، وأيهما أوفر نصيباً وأعظم بلاء فى توطيد الحضارة وإنماء ثروتها ؟

فى تاريخ الحضارة عصران ، العصر القديم البدائى الذى تغيب أصوله ومناشئه فى ظلام ما قبل التاريخ ، والعصر الحديث ومعالمه واضحة وضوحاً نسبيًّا ، ففى العصر القديم لم يكن للمرأة حظ فى الزعامة السياسية والاجتماعية ، ولم يكن لها نصيب مذكور فى الحفلات الدينية ولا فى توزيع الثروة ، فليس من المنتظر إذن أن تبرز لها مواهب خالقة مبدعة فى هذا المجال ، أو أن تدانى الرجل فيما أحرزه فيه من تفوق وانتصار ، ولكن فى الفن والصناعة ظهر لها أثر ملموس وتفوق ملحوظ ، وإذا تأملنا الإنتاج الفنى والصناعى للقبائل القديمة وجدنا مشاركة المرأة للرجل بينة فيه ، فالأوانى الغانية بالزخارف والقوارير الحافلة بالرسوم والمطارف الموشاة من صنع المرأة ، وهى فى كل مكان ترقم الحلل وتنمنم الوشى وتغزل المخمل ، وفى الجماعات البدائية هى التى تستنبت الأرض وتبذر الحبوب وتقوم بجمع الخضر والبقول وتحيلها طعاماً شهياً بأساليب هى فى الغالب من مبتكراتها ، وواضح من ذلك أن سجل المرأة فى حالة الإنسان الفطرية حافل بجلائل الأعمال ويكاد يكون معادلاً لسجل الرجل ، ولكن علينا أن نلاحظ هنا أن طابع القبيلة فى أمثال تلك المجتمعات يتغلب على الميزة الشخصية سواء من ناحية الرجل أو من ناحية المرأة . فوثبات الخيال والقدرة على التجديد والرغبة فى الإختراع مرهقة مكبوحة فى تلك المجتمعات بسبب رسوخ العادات وصلابة التقاليد . فإذا انتقلنا إلى العصور الحديثة إستبان لنا عجز المرأة وقصورها فى الشؤون

الاجتماعية والسياسية والدينية بحيث لا يمكن الإعتراف لها بمشاركة مأثورة فيها ، كذلك فى فن البناء والعمارة ليس لها فضل يذكر ، ولكن مواهب المرأة تجلت فى نواح أخرى مثل الفلسفة والرياضيات والعلوم والنحت والتصوير والأدب والموسيقى والدراما .

وفى الفلسفة والرياضيات لم تسم المرأة إلى المرتبة الأولى ، كذلك فى العلوم لم تبلغ امرأة الدرجة العليا وإن كانت لبعضهن آثار جديرة بالإعجاب والتقدير . ويلاحظ أن النساء النابغات واللواتى برزن فى العلوم قد قمن بما قمن به فى المعمل لا فى عالم التفكير المجرد ومنطقة الخيال الكاشف .

ويمكن المرأة أن تعتذر عن جهدها المتواضع وقلة إنتاجها فى هذا المجال بأن الفرصة التى أتيحت لها لإظهار ذكائها فى الفلسفة والرياضيات والعلوم ليست بكافية لقصر مدتها ، وأن عدد النساء المتوفرات على العلوم جد قليل ، ومن ثم فإنه من الحيف أن يعتبر ماتم فى هذا المجال دليلاً نهائيًّا ومقياساً حاسماً ، وهو اعتراض خليق بالرعاية والإلتفات .

أما فى نواحى النحت والتصوير فقد نبغت نساء كثيرات ولكن لم تصل إحداهن إلى مرتبة أمثال رودن أو بيكاسو أو رينوار ، ولعل حظهن فى الأدب والشعر أوفى وأجزل . فقد وفقن فى الشعر والنثر إلى مدى بعيد ولم يقصرن إلا عن الأفذاذ القلائل والفحول النوادر .

وفى الموسيقى نجحت النساء فى الأداء حيث يكفى القليل من الابتكار ، أما فى التأليف فقد فشلن فشلاً ذريعاً ، ومنهن من تفوقت فى الغناء ورخامة الصوت . ولكن ليس لهن فى التأليف والتلحين نصيب وافر ولا مقدرة ملحوظة .

وفى التمثيل وصل النساء إلى القمة وأدين أدوارهن على أحسن الوجوه وأتمها وتحدين فيه الرجال وتفوقن عليهم فى كثير من الحالات ، ولكن فى التأليف

المسرحى – وإن كن قدانتهين إلى مستوى رفيع – لكنهن لم يستطعن مساماة الممتازين من أمثال موليير وإبسن وتشيكوف .

فإذا ما أعدنا النظر الآن إلى ماضى المرأة فى العصر البدائى وقابلناه بحاضرها فى عصر الحضارة اتضح لنا أن المرأة عندما أتيحت لها الفرصة فى الحالة البدائية ساوت الرجل فى الابتكار ، ولكن فى المجتمع الحديث لم تستطع مباراته فى أرق الميادين وأصعب المحالات ، والنتيجة التى يمكن إستخلاصها من ذلك أن المرأة زاحمت الرجل وجاذبته فضل الإبتكار حيث كان المجال ضيقاً محدوداً بسبب حالة المجتمعات البدائية الثقافية ، أما فى المجتمع الحديث حيث الفرصة سانحة والمجال فسيح لإظهار الملكات وتفتح المواهب فقد تخلفت المرأة ولم تستطع مجاراة الرجل ، فقدرة المرأة على الابتكار تعادل مقدرة الرجل إذا كان المستوى خفيضاً ، فإذا إرتفع المستوى وإتسع الأفق تقصر عنه ولا تبلغ مداه .

ولكن تحليل هذه الحقيقة وتعليلها ليس من الأمور السهلة الهينة . ومسألة أن ذهن الرجل أرق وأكبر حجماً من ذهن المرأة لم تصبح بعد فى مرتبة الحقائق العلمية الثابتة ، فإنه لم يثبت نهائيًا أن ذهن المرأة أصغر من ذهن الرجل ، وفضلاً عن ذلك فإن العلاقة بين الذهن نفسه والقوى المفكرة لا تزال موضوعاً للبحث ، والبعض يعلل تفوق الرجل فى الإبتكار بقوة التفكير وإتصاله فى غير ونية ولا إنقطاع ، ولكن الواقع أن هذا التعليل غير كاف لأن المفكر لا يعتمد على قوة التفكير وحدها وإنما يعتمد فى الأغلب على قوة حصر التفكير وتوجيهه وجهة معينة وعلى جرأة الخيال وتقحمه ، والمفكر المبتكر لا معدى له عن أن يتخلص من كل قيد موهن ويرتفع فوق كل نزعة سائدة ويفسح المجال لخياله الطليق ، فالإبتكار مرده إلى الشخصية والخيال لا إلى التفكير وحده ، ويظهر أن الرجل يمتاز عن المرأة فى هذه القدرة وإن كانت المرأة لا تخلو من آثارها .

ولننظر الآن إلى الميادين التي خلفت المرأة فيها آثاراً تذكر لنرى تفاوت تلك الآثار ومقدار تفوق المرأة فيها ، وهنا يلاحظ أن المرأة أقل إجادة للموسيقى وأكثر نبوغاً فى الأدب وأعظم تفوقاً فى الغناء والتمثيل .

ويمكننا أن نستخلص من ذلك أن المرأة يكثر نبوغها كلما كان المجال أقرب إلى التعين والتخصيص ، وأدنى إلى العنصر الآلى الصناعى والعامل الإنسانى ، فالإبتكار فى الموسيقى أكثر حاجة إلى المقدرة على التجريد من الإبتكار فى الفنون التصويرية والأدب ولذا قل نبوغ المرأة فى الموسيقى وهى تحسن فيها الأداء بعض الإحسان ولكنها لا تجيد التأليف ، وهى لا تحسن التأليف المسرحى لما يستلزمه من قدرة على التجريد ، ولكنها تجيد التمثيل على المسرح إجادة فائقة ، ويزيدها إقبالاً عليه وتجويداً له حضور الجمهور ووفرة العنصر الإنسانى فيه ، وواضح من ذلك أن قدرة المرأة وكفايتها تتجلى فى عالم التعين أكثر منها فى عالم التجريد ، وفى منطقة العمليات أكثر منها فى منطقة المثاليات ، وفى النواحى الإنسانية المحضة أكثر منها فى النواحى الكونية الخالصة ، وهى نتيجة تتفق تمام الإتفاق مع أكثر ما يرد عن المرأة وتحليل نفسيتها وتشريح سلوكها فى القصص المأثورة ، والروايات التى تجود بها عبقرية المؤلفين الممتازين .

وموجز القول إن المرأة قد أظهرت إستعداداً صالحاً للإبتكار ، ولكن عندما سمحت ظروف الثقافة بتوسيع مجال الإبتكار فإنها لم تظهر تفوقاً من الناحية التجريدية ، والظاهر أن العالم الفكرى المجرد لا يستميل نوازع المرأة ، والمرأة بوجه عام أزهد فى الإبتكار من الرجل وأميل إلى أن تعيش على مستودع الأفكار العادية ، وهى ليست شديدة الرغبة فى تحدى المألوف والخروج على الطراز المعهود ، ومن ثم كانت أكثر محافظة من الرجل .

ومن التسرع إصدار الأحكام على الحركة النسائية وتطلع المرأة إلى التحرير

الكامل والمساواة التامة ، وهى الآن تبذل جهدها فى الملاءمة بين نفسها وبين الحقوق التى أكتسبتها ، وأرجح أن من مصلحة المرأة أن تعرف فى هذا المقام أنها لم تخلق لمنافسة الرجل وأن عليهما أن ينهضا بواجبين يكمل كل منهما الآخر ، فإن ذلك خير للمرأة والرجل وأجدى على الإنسانية والحضارة .

الشك المتطرف والشك المعتدل

يقول الشريف الرضى فى مطلع إحدى مراثيه المشهورة :

قف موقف الشك لا يأس ولا طمع وغالط العيش لا صبر ولا جزع

وموقف الشك هذا الذى ينصح لنا بوقوفه شاعرنا الكبير ، وهو يمارس حالة من الحالات النفسية الكثيرة التى عالجها وإصطلى بنيرانها يقتضى الإضطراب بين المذاهب المتعارضة والعقائد المختلفة ، وعدم الإنتهاء إلى تصميم قاطع تلقاء الحجج المتكاثرة والبراهين المتنوعة ، وهذا هو معنى الشك فى اللغة الدارجة والعرف الشائع ، وأما فى الفلسفة ومصطلح التفكير النظرى فإن الشك معناه الاعتقاد بأن الحق أو المعرفة الصادقة من وراء قدرة الإنسان ومن فوق طاقة عقله ، فلا سبيل إلى إدراكه أو تلمس أسبابه وإزاحة النقاب عن أسراره ، فنحن من أمورنا فى ليل لا تنجلى ظلمته ولا يسفر له صبح .

وليس الشك هو الأصل فى الإنسان ، لأن المرحلة البدائية من مراحل التفكير البشرى هى التصديق البرىء والإيمان الساذج ، ولذا يسود الشك فى أدوار نضج الحضارات وعهودها المتأخرة التى تضعف فيها قوة الطبع ، ويعلو مستوى الذكاء ، والتأكيد يسبق النفى ، والتعصب يتقدم الشك ، وقد فطر الإنسان على الإيمان بحواسه والإعتماد على إدراكه المباشر ، ولا يزال التشكيك فى صحة ذلك مما يستنكره الكثيرون ويحسبونه نوعاً من الحذلقة والتفكير المعوج ، وهذا الإيمان

العميق البسيط بصدق الحواس لا يزال عماد الحياة العملية وركنها الركين ، ومعولنا فى معركك تنازع البقاء وتحصيل القوت .

وقد نشأ مذهب الشك عند اليونان عندما تعارضت إدراكات الحس مع استنتاجات العقل ، وأوحى توالى المذاهب المتناقضة والنظريات المتعارضة فكرة أن المذاهب جميعها قد تكون خاطئة زائفة ، وأن الحقيقة هى أنه ليس هناك حقيقة ، وأن الأمر كما صوره الأستاذ العقاد فى قوله :

أين الحقيقة ؟ لا حقيـ ـقة كل ما ذكروا كلام

وقد كان السفسطائيون هم أول المتشككين ، فقد ردوا المعرفة إلى الآراء الفردية ، واستشهدوا فى ذلك الحواس ، وأعلنوا مغالطات كثيرة أشهرها مغالطات غورغياس . وتتلخص فى قضايا ثلاث . وهى أنه لا يوجد شىء ، وإذا كان هناك شىء فالإنسان قاصر عن إدراكه ، وأنه إذا كان هناك شىء وكان يمكن معرفته فإنه من غير المستطاع التعبير عنه بالكلام ، وكان السفسطائيون مجادلين بارعين متأهبين للدفاع عن كل مغالطة ، وكانوا أحرص على إشباع شهوة الغرور وحب الفلج منهم على رعاية الحق وجلائه ، ولم يكن ينتظر منهم إكبار الحق فى حين أن فلسفتهم قائمة على إنكاره وعدم التسليم بوجوده ، ومغالطات السفسطائيين تقوم فى بعض الأحيان على القياس الفاسد وأحياناً أخرى على تفاهات منطقية لا قيمة لها .

والمعروف أن واضع أساس مذهب الشك عند اليونان هو الفيلسوف بيرون المولود فى مدينة إيليس سنة ٣٦٥ قبل الميلاد وقد كان معاصراً لأرسطو ، وهو لم يدون آراءه ، وإنما ذكرها تلميذه تيمون ، وكانت غاية الفلاسفة المتشككين غاية عملية ، فهم مثل الرواقيين والأبيقوريين ينشدون السعادة ، ويطلبون الطمأنينة ، ولكن هذه الفلسفة التى تؤدى إلى السعادة تقتضينا أن نعرف ماهية

الأشياء وكيف نحدد علاقتنا بها . وقد رأى المتشككون أن حقيقة الأشياء من وراء حدود معرفتنا ، لأننا لا ندرك الأشياء فى ذاتها ، وإنما ندركها بحسب ما تبدو لنا ، وأفكارنا عنها ليست حقاً ولا باطلاً ، وليس فى وسعنا أن ندلى برأى أو نقطع بحجة فى أى شيء ، ولا يمكننا أن نطمئن لما تفضى به إلينا مشاعرنا وإدراكنا الحسى ، وكل فرض له نقيضه ، ومن ثم تناقضت أفكار الناس عامة وتضاربت آراء الفلاسفة خاصة ، والعلاقة الخاصة بين الفيلسوف والأشياء هى أن يعلق حكمه ويرجئ بته ، وقد رجا الفلاسفة المتشككون أن يصلوا إلى السعادة عن طريق إرجاء الحكم ، وتجنيب أنفسهم مشقة احتمال تبعة الآراء الحاسمة والمذاهب الفاصلة ، وعندهم أن من لاذ بحمى الشك عاش فى أمان ومتعة من البلادة والفتور لا يرنق صفوه شيء .

ولعل أكبر مغالطة تطرف فيها المتشككون هى أنهم مدو أرواق الشك إلى صميم الشك ، وهذا الضرب من الشك العدمى له نظير فى العصر الحديث ، فقد قال بسكال عن مونتانى «إنه ألقى بكل شيء فى غمار الشك حتى تشكك فى شكوكه» وقد انتهى الشك ببعض كتاب العصر إلى مدى بعيد . فيابينى الإيطالى يقول فى كتابه «إنسان كامل» «نظرت فى كل شيء إلى ماله وماعليه ، وماعليه وماله ، فهل أنا متشكك ؟ لا لسوء الحظ لست حتى متشككاً ، إن المتشكك سعيد رخى البال ، فقد أطمأن إلى يقين وهذا اليقين هو عدم الاهتداء إلى الحق ، فهو يستطيع أن يكون وادع النفس ، بل يستطيع إذا شاء أن يكون متعصباً متحمساً ، ولكننى لست كذلك ، فلست أعتقد بعبث كل بحث عن الحق ، ولست واثقاً حتى من عدم وجود الحقيقة ، وقد يكون الحق فى حيز الممكنات وقد يهتدى إليه الإنسان» .

ويقول هرمان بهر «لقد حاولنا إثبات كل شيء فلم يثبت لتجاربنا شيء ،

وعلى الأقل نتيجة أنه لم يثبت لتجاربنا شيء هى نفسها لم نتمكن من إثباتها بعد ، ولقد طفنا بكل وجه من وجوه اليأس حتى يئسنا من اليأس» .

وهذا الشك فى الشك أو اليأس من اليأس قائم على استحالة معرفة الحق والباطل ، فالشك هنا مضاعف ومزدوج ، ويظهر أن هذين الكاتبين لم يستطيعا احتمال هذه الحالة طويلاً ، فقد انقلبا مؤمنين واستذريا بظل الكنيسة وتخلصا من رمضاء هجير الشكوك .

وفى أواخر العصور الوسطى كان الشك لا يبدو إلا مستوراً ملففاً ، ولكن عندما كان يكشف عن نفسه كانت تبدو طبيعته القائمة على المغالطة ، فقد ورد فى رسالة منسوبة إلى البابا إنوسنت الثالث هذه الكلمات «كلما أنفق الإنسان جهداً فى البحث قل ما يجده ، لأن أكثر الناس فهماً أكثرهم شكًّا ، والذى يبدو فى نظر نفسه حكيماً عاقلاً هو فى الواقع سخيف مأفون ، والله قد برأ الناس صالحين ولكن الإنسان أوقع نفسه فى حبائل مشكلات لا نهاية لها» .

وفى أواخر القرون الوسطى ظهرت نظرية «ازدواج الحق» وهى أن الفرض قد يكون حقًّا فى الفلسفة ولكنه غير حق فى عالم الدين والعكس بالعكس ، وقد رفضتها الكنيسة فى بادئ الأمر ، ولكن تصدى للدفاع عنها الفيلسوف الإيطالى بومبوناتزى فى بواكير القرن السادس عشر ،وهى وسيلة لجأت إليها الفلسفة للإحتفاظ بحريتها والمحافظة على كيانها .

ومونتانى هو أنموذج المتشككين فى عهد إحياء العلوم ، وقد كان متأثراً بفكرتين ، فكرة إستحالة إثبات ملكاتنا ، وفكرة نسبية جميع أحاسيسنا ، ومن أدلته على سخف البشرية وركاكة عقلها قوله «يزداد إيماننا رسوخاً بما نعرفه أضأل معرفة» وقوله «الإنسان جد مجنون فهو لا يستطيع أن يخلق دودة ولكنه مع ذلك يصنع الآلهة بالعشرات» ، وقوله «لقد ولدنا للبحث عن الحق ، ولكن امتلاكه

يتطلب قوة أكثر مما أوتينا » .

وشك مونتانى يحمل طابع الشك الحديث فهو خال من هدوء الشك اليونانى ، وفيه القلق الممض والحيرة اللاهفة التى تميز الشك الحديث ، وتلمح فى المتشككين المحدثين النزوع إلى اليقين وألم العجز عن إدراكه .

وهناك فريق من الناس يبنون يقينهم على الشك وهم يشبهون فى ذلك اليهودى الذى قال عنه بوكاشيو فى الديكامرون إنه ذهب إلى روما وهاله ما رأى من فساد الكنيسة واختلال أحوالها ، فأغراه ذلك بأن يدخل فى المسيحية ، لأنه اقتنع بأن الكنيسة التى تنحدر إلى مثل هذا الفساد ثم لا يقضى عليها ويفشل أمرها لابد أن تكون ملحوظة بالعناية المقدسة !

ولكن هل بناء اليقين على أساس من الشك مما يجلب الراحة ويؤدى إلى الطمأنينة ؟ وإذا كان الشك سبيل الإيمان أفلا يكون من المحتمل أن يظل الشك عالقاً ببعض النتائج التى ينتهى إليها الإنسان ؟ .

وهذا هو على أى حال الشك الذى قد يولد الإيمان ، كما أن هناك الإيمان الذى قد ينتج الشك .

ويشبه المتشكك من بعض الوجوه « الهاوى » وهو الرجل الذى يهوى الأفكار لذاتها ويتابع فى تطلع وشغف كل المشكلات الفكرية ، ولكنه لا يتحيز لفكرة لأنه يجد فى كل فكرة طرفاً من الحق ، فهو يُعْنى بكل شىء ، ولكنه لا يتعصب لشىء ، وقد يبدو فى بادئ الأمر أن المتشكك نقيض الهاوى ، لأن المتشكك يسائل كل شىء ، والهاوى يؤكد كل شىء ويقبله ويحتضنه ، ولكن الواقع أن موقف الهاوى يحطم التعصب ، ويعصف باليقين ، ويغرى بالاعتدال والتأمل الساخر مثل موقف المتشكك .

ومذهب الشك يقتل نفسه بنفسه ، وهو بحكمه على المعرفة بأنها غير صادقة

ولا ممكنة يحكم على نفسه حكماً ضمنياً بأنه غير صادق ، لأنه إذا لم يكن هناك حق فإن مذهب الشك إذن ليس فيه حق ، لأنه ثمرة عقل هو بطبيعته عاجز عن إدراك الحق ، فإذا صح مذهب الشك فمعناه أنه مذهب لا يقوم على أساس ، ولا مفر للإنسان إذا أراد أن يتحاشى التناقض من أن يعترف بأن المعرفة ممكنة وأن الحق يمكن الوصول إليه .

وهناك لون طريف من الشك وهو ما يصح أن يسمى بالشك المعتدل المعقول أو الشك على الطريقة الإنجليزية ، وأقصد به شك المفكر الإنجليزى الممتاز برتراند رسل ، فليس شكه من ذلك النوع اليائس من العقل أو ذلك الشك الموكل بالمتناقضات والمشوب بالنزعة الصوفية ، وليس هو بالمتشكك على طريق الهواة من أمثال رينان وأناتول فرانس ورمى دى جورمون ، ولأتركه يعرض علينا رأيه ، ويوجز لنا مذهبه كما ورد فى مقاله القيم عن «قيمة الشك» حيث يقول «أريد أن أعرض على نظر القارئ رأياً ربما يبدو متناقضاً هداماً ، وهذا الرأى هو إنه من غير المرغوب فيه أن نعتقد رأياً من الآراء لم تقم الأدلة على صحته ، وإنى أقرر أنه لو عمم هذا الرأى لغير أحوالنا الاجتماعية ونظامنا السياسى .

وإنى أعرف أن هذا الرأى سيقلل من دخل أدعياء معرفة الغيب والقساوسة وغيرهم ممن يعيشون على تغذية الآمال غير المعقولة ، ومما يروى عن بيرون مؤسس مذهب الشكوكية أنه كان يقول «ليس عندنا من المعرفة ما يجعلنا نرجح سبيلاً على آخر» ، فلما كان يرتاض فى عصر يوم من الأيام أبصر أستاذه الذى تلقى عليه دروسه الفلسفية ورأسه ملصق فى خندق متأق بالماء وقد عجز عن إخراجه ، فتأمله ملياً ثم سار فى طريقه ، ذاهباً إلى أنه ليس هناك دليل كاف للاعتقاد بأنه سيحسن الصنيع إذا أنقذ الرجل الكهل من هذا المأزق ، وتقدم غيره ممن هم أقل شكاً وأنقذوا الرجل ، ولاموا بيرون لتحجر قلبه وجمود عواطفه ، ولكن

أستاذه أثنى عليه لإخلاصه لمبادئه !

وأنا لا أدعو إلى مثل هذه « البطولة » فى الشك ، والشكوكية التى أدعو إليها تتلخص فيما يأتى :

(١) عندما يتفق الخبراء المتخصصون فإن الرأى المناقض لرأيهم لا يمكن أن نثق بصحته .

(٢) عندما يختلفون وتتناقض آراؤهم لا يمكن غير المتخصص أن يعتقد بصحة رأى .

(٣) عندما يجمعون على أنه ليس هناك دليل ثابت على صحة رأى فإنه يحسن بالرجل العادى أن يرجئ حكمه .

وهى فروض معتدلة فى ظاهرها ، ولكنها لو قبلت وعمل بمقتضاها لأحدثت ثورة فى الحياة الإنسانية .

وهذا هو الشك الذى يدعو برتراند رسل إلى ترويج سوقه ونشر أعلامه ، ولست أرى بأساً فى اصطناعه عند تناول ما يتقلب علينا من الأحوال ، وما يعرض لنا من الحوادث ، وهو يوحى بالاعتدال والأناة فى إصدار الأحكام ، ويجنبنا مزالق الآراء المبتسرة والأحكام المرتجلة .

نكران الجميل

روى الكاتب الروسى العظيم إيفان ترجنيف فى إحدى قصائده المنثورة أنه فى ذات يوم خطر ببال الكائن الأعلى أن يولم وليمة فاخرة فى قصره السماوى ، ودعيت الفضائل كلها ، ولم يحضر رجال ، لأن الدعوة كانت مقصورة على السيدات .

حضرت الكثيرات ، منهن الصغيرة الشأن ، ومنهن العظيمة المكانة ، وكانت الفضائل الصغرى أوفر سروراً وأكثر فرحاً من كبريات الفضائل ، وإن كانت مظاهر الإنشراح بادية على الجميع ، وكن يتحدثن فى رقة وبشاشة مما هو حرى بصديقات أقارب أمثالهن ، ولاحظ الكائن الأعلى أن بين سيدتين فاتنتين حجاباً من الوحشة ، لأنهما لم يتعارفا ، فتقدم رب الدار من إحدى السيدتين وأعطاها ذراعه ، وسار بها إلى السيدة الأخرى ثم قال مشيراً إلى الأولى « الإحسان » وقال مشيراً إلى الثانية « عرفان الجميل » فعرت الفضيلتين الدهشة وبهتتا ، وعجبت كل منهما من أمر صاحبتها ، وكانت تلك المرة الأولى للقائهما منذ خلق الدنيا .

وهذه الأسطورة تردد شكوى معروفة ، وتعيد فى أسلوب خيالى نغمة مألوفة عن كثرة جحود الفضل وقلة عرفان الجميل ، وطالما رمى النوع الإنسانى بالجحود والكفران ، وقرف بالخسة والدناءة ، وقشب بالعقوق والغدر ، والذين يرسلون هذه الشكوى المرة ويفتنون فى وصف الإنسان بأقبح الأوصاف لم يحددوا لنا

مكانتهم من الإنسانية ، فلنا أن نعتبرهم من أبناء هذا النوع الإنسانى البغيض الذى لم ينقرض بعد !

وهم إذن جزء من هذه الإنسانية العارية من المحاسن ، المجردة من الفضائل ، فإذا أحصوا لنا مساوئ الإنسانية ونعوا عليها عيوبها ، فكأنهم يتحدثون إلينا ضمناً عن عيوبهم ونقائصهم ، وإن كان إدراك هذا والإقرار به يستلزم قدرة فائقة على مواجهة النفس ، وتشريح العواطف الخاصة ، وتحليل البواعث الدخيلة ليست ميسورة للكثيرين ، وبخاصة من إخواننا الذين يدعون العصمة ، ويخالون أنفسهم من السمو الأخلاقى فى أعلى عليين .

وأكثر الناس – كما يرى العلامة النفسى الكبير وليم ستيكل فى كتابه القيم عن « أعماق الروح » – مولعون بخداع أنفسهم وتضليلها ، وحريصون على أن يغضوا الطرف عن عيوبهم ونقائصهم ، وهذا من أوضح وجوه الضعف فى الإنسان وأظهر نقائصه ، فنحن لا نرى أنفسنا أبرع تفكيراً وأوسع حيلة من غيرنا فحسب ، وإنما نخال أنفسنا كذلك أحسن مخبراً وأخلص جوهراً من الآخرين ، وسرعان ما نتناسى عيوبنا وأخطاءنا ونسقطها من حسابنا ونلقى دونها الحجب والأسداد ، فى حين أن محاسننا وفضائلنا ماثلة على الدوام بإزائنا فى صورة مكبرة وألوان براقة وكل إنسان عند نفسه أحكم الحكماء وأعقل العقلاء وسيد الناس قاطبة ، وهذا هو السر فى تلك الشكوى الدائمة التى لا تنقطع من إخواننا وزملائنا الناكرين للجميل الجاحدين للمعروف ، ونحن نشكو ونسرف فى الشكوى لأننا قد نسينا بسهولة جميع المواقف الشائنة التى كنا فيها نحن أنفسنا ناكرين للصنيعة جاحدين للفضل .

ولكن لماذا كنا كذلك ونحن فى نظر أنفسنا أهل للأخلاق العالية والشيم الكريمة والمناقب الحسان ؟ وكيف سما إلينا العيب وترامى إلينا النقصان وكلنا كنا

ندّعي قول المتنبي «ما أبعد العيب والنقصان عن خلقي» ؟ يعلل ذلك العلامة «ستيكل» تعليلاً مقبولاً ، فهو يعزوه إلى ذلك القانون النفسي الذي يجعلنا على الدوام راغبين فى نسيان كل شيء يوقظ فى نفوسنا العواطف الأليمة ، والمشاعر الموجعة التي تجرح عزتنا وتنال من كرامتنا .

والشكوى من نكران الجميل شكوى قديمة متأصلة واردة فى الأساطير وأخبار الأمم الخالية ، ومذكورة فى الأمثال وطرائف الحكم . وهذه الشكوى الواغلة فى القدم تدل على أن إنكار الجميل ظاهرة نفسية معهودة وما دامت متمكنة من النفس كل هذا التمكن ومتفشية فى الناس كل هذا التفشي فهي إذن جديرة بالتفسير والتحليل .

ومادام إنكار الجميل حقيقة نفسية ملحوظة ، ومظهراً معترفاً به فعلينا إذن أن نبحث فى أغوار النفس وهاوياتها السحيقة عن هذه القوى المظلمة العاتية التي تضطرب وتعتمل فى الأعماق وتصارع فيها بواعث تقدير الجميل والشعور بالحب والإخلاص للذين أحسنوا إلينا وأخذوا بأيدينا ونهضوا بنا وسددوا خطواتنا وشملونا بعطفهم ورعايتهم ، ثم تنجلي المعركة عن غلبة تلك القوى المظلمة وانتصارها التام فنتنكر للذين أحسنوا إلينا ونتبرم بهم ، ونتناسى كل ما أسلفوا إلينا من حسنات ونجازيهم بالعقوق والكنود .

ومن الواضح المألوف أننا نقدر فى بادئ الأمر كل من يسدي إلينا يداً ، وننطوي له على الحب والإعتراف بالجميل ، ونحاول أن ننهض بشكره ونرد له الجميل مضاعفاً ، ولا يخطر ببالنا أننا سننسى جميله يوماً ما ، ونضيق به ذرعاً ، ويثقل علينا مكانه ولكن تصاريف الزمن وتقلبات الحوادث سرعان ما تعصف بهذه الرغبة الطيبة وتقضي على هذا الشعور الصالح ، ومرور الأيام كفيل بتصويح أزاهير الشكر وتجفيف ينابيع الحب والود ، وعرفان الجميل الذي يستولي علينا فى

بادئ الأمر لا يلبث أن يلح عليه السقم ويدب فيه الضعف حتى يمحى رسمه وتزول معالمه ويصم صداه ، فلا يتردد فى جوانب النفس ، ولا تهيب هواتفه بالإنسان ، وبعد فترة من الزمن يشغل مكانه نكران الجميل ، وتتحول كل العواطف التى صحبت تقدير الجميل إلى أضدادها ونقائضها فيعود الحب حقداً وضغينة وكراهية وجفاء ، وتنقلب الصداقة إلى عداء صريح ، ويستحيل المدح والإطراء والثناء ذماً وتقصياً للعيوب ونشراً للمساوئ .

ولكن كيف يتم ذلك ويقع ؟ وأين تكمن هذه التيارات الخفية التى تنقل عواطفنا من النقيض إلى النقيض ؟

تعليل ذلك هين ، وقد أشرت إليه فى مستهل المقال ، فنحن فى نظر أنفسنا أعقل العقلاء وأحسن الناس وأعظمهم كفاية وأوسعم قدرة ، ونحن لا نعترف بعيب من عيوبنا إلا بعد تردد شديد ، وفى بطء وتثاقل وإذا اضطررنا إلى أن نشيد بمحاسن الغير والاعتراف بتفوقه فعلنا ذلك فى تحفظ واقتصاد لكى نترك لأنفسنا مضطرباً واسعاً تستطيع فيه أنانيتنا أن تتربع على عرشها وهذا هو سر كبريائنا الداخلية ، وكل إنسان يعتقد أنه فى عالمه الخاص الفذ منقطع النظير ، وهذا الشعور بعظمة النفس والمغالاة بقيمتها ، والإكبار لشأنها أساس طبيعى للحياة البشرية ، وحيلة دفاعية للنفس ، وركن تكتهف به وتلجأ إليه لتتقى سهام الخطوب وبوائق القدر وكوارث الدهر ، وهو يجعلنا أقدر على إحتمال أعباء الحياة ومصابرة الحوادث ويعوض لنا إغفال الدنيا لشأننا وعدم إكتراثها بنا ، ويعزينا عن تقصير مجهوداتنا عن مطالبنا ورغباتنا ، والمتنبى يقول :

وأتعب خلق الله من بات جاهداً   وقصر عما تشتهى النفس جهده

ونحن كلنا هذا الرجل المتعب المقصرة قدرته عن رغباته ، والذى يسمو به الأمل ويقعد به العجز !

ولعل هذا الشعور بالنفس والإسراف فى تقديرها فى العصور الحديثة أظهر وأعم وأكثر تفشياً ، لأنه كلما قل نصيب الإنسان فى توجيه أحوال الدنيا صور له وهمه ضخامة مساعيه وجلالة خطره وعظيم أهميته ، وكلما ضغطت شخصية وجارت عليها النظم والأحوال الاقتصادية حلت محلها العظمة الموهومة والمجد المستعار وظن كل إنسان أنه من الأهمية وعظيم الشأن بحيث لا يمكن أن يستغنى عنه ، ومن ثم يخامره الاعتقاد بأنه ليس مديناً لأى إنسان ، وأنه نجح ووفق بفضل عمله وكدحه وثباته ومثابرته وما يبذل من نشاط وما ينفق من جهد ، وأنه نال ما نال بسعيه ودؤوبه ، وأكثر الناس لا يعرفون أنهم قد أخذوا أشياء كثيرة قبل أن يعطوا شيئاً ولا يطيقون أن يحاسبوا أنفسهم خشية أن يعترفوا بالدين لأحد .

والشعور بأننا مدينون للغير ينافر ثقتنا بأنفسنا ، لأن هذه الحقيقة غير السارة تنفى عنا أوهام العظمة ، وتبدد هالة المجد الحافة بنا ، وليس لنا فى الصراع المحتدم بين العواطف إلا أن نختار أحد شيئين ، إما أن نرفض هذا الشعور بعظمة النفس المبالغ فيه ، وإما أن ننسى هذا الجميل الذى طوق عنقنا ، ونخمد ذكراه المؤلمة ونعفى على آثاره .

وهناك فريق من صرعى الحظ الذين أوسعهم القدر ضرباً بهراوته ، فهم يشعرون فى كل لحظة بالذلة والمهانة ، وأمثال هؤلاء اليائسين أصبحوا فى غير حاجة إلى الإستعانة بالدوافع النفسية ليكافحوا فى الحياة ، ويشقوا طريقهم إلى المجد ، وقد تغلبت فى نفوسهم حاجات الجسد على مطالب الروح ، والمحسن عندهم من يخلصهم من آلامهم الجسدية ، وهم ليس عندهم مانع من تقدير الجميل والاعتراف بالفضل .

ولكن الذى لم يتنازل عن أطماعه ورغائبه قل أن يكون شاكراً للجميل لأن

أنانيته تأبى الإعتراف بفضل الغير ، وتأبى لذلك أن تواجه هذه الحقيقة المرة ، حقيقة إنكار الجميل ، فما يصنع فى هذا المأزق ؟ لا معدى له عن بحث الأسباب والبواعث والمسوغات التى قامت بنفس المنعم حين هم بتقديم الجميل وإسداء الصنيعة ، ومن السهل أن يجد فى ثناياها منفذاً لأنانيته وإرضاء لشهوة من شهوات نفسه ، وكل عمل إنسانى بطبيعته يحتمل تفسيرات مختلفة وتأويلات عدة ، ولذا قل أن يخذله بحثه ، وسيعمل دافع المحافظة على الذات وإكبار النفس على إختيار التفسير الملائم له والذى يرفع عن عاتقه أثقال الحمد والشكر المبهظة ، وهذه هى المرحلة االأولى فى الإنتقال من الإعتراف بالجميل إلى إنكاره ، ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، لأنه يستلزم فى العادة إنتقال العاطفة إلى نقيضها ، وسرعان ما تتجمع عندنا الأسباب الداعية إلى تحويل العمل الصالح إلى عمل شرير ، ونهتدى إلى عيوب ونقائص فى أخلاق مسدى الجميل كانت خافية علينا غائبة عنا ، وتبدو لنا حياته التى كنا نخالها نقية ناصعة موصومة ملطخة ، ولا نستريح من ذلك الشعور الثقيل ، شعور عرفان الجميل إلا إذا فعلنا ذلك ! وهكذا وقد تخلصنا من أوقار الإعتراف بالجميل وأصبحنا لا نرى له موجباً ولا داعياً تعاودنا كبرياؤنا وعزتنا ، وترفع أنانيتنا رأسها بعد الإنحناء والميل والذلة والإستخذاء .

وهذا التفسير « السيكلوجى » لإنكار الجميل يرفع النقاب عن أسرار الكثير من المظاهر التى نشاهدها فى حياتنا اليومية وتجاربنا الشخصية ، مثل تنكر الخدم لسادتهم المتفضلين عليهم ، وتمرد التلاميذ على أساتذتهم وهم مدينون لهم بالتوجيه والقدوة ، وكراهة المرضى للأطباء الذين يعالجونهم ويبذلون الجهد فى تخفيف آلامهم وشفاء أمراضهم ، وتنكر الأمم لقادتها العظماء وأبنائها البررة .

والذى يعتمد على تقدير الناس للجميل ، ويبنى عليه القصور يجهل الطبيعة

الإنسانية ولا يعرف نفسه ، ونحن فى بعض الأحايين نلتمس الشكر والتقدير لقيامنا بأعمال هى من ألزم واجباتنا ، أليس من واجبات الوالد مثلاً أن يعول أبناءه حتى يشتد ساعدهم ويستطيعوا العمل واحتمال التبعة ؟ ومع ذلك فنحن نكثر من تذكير أولادنا بضرورة تقدير هذا الجميل ونمتن عليهم ، ونبصرهم بواجبات عرفان الفضل ، ألسنا نكسوهم ونطعمهم ونعلمهم ؟ وهذا الإصرار من ناحيتنا على تقدير الجميل يغرى الأولاد بإنكاره وشق عصا الطاعة . ومن الخير أن تقوم الرابطة بين الأب وأولاده على رابطة الحب والولاء ، لا على رابطة عرفان الجميل وتقدير الصنيعة .

ولكن لا يجب أن نغمط الطبيعة الإنسانية حقها ، وننكر عليها بعض الجوانب الطيبة ، فهناك فريق من الناس يسرهم الإعتراف بالجميل وتقدير الفضل ، وهم لا يأنفون من ذلك ولا يترفعون عنه ، وهؤلاء القوم يشعرون بأن إعترافهم بالجميل لا يفقدهم كرامتهم ولا يحط من مكانتهم وهؤلاء هم أهل السمو الروحى الذين أدركوا تلك الحقيقة الجليلة الخطر وهى أن الإنسان ليس وحدة مستقلة ، وأن تقديرنا لأنفسنا تقدير خاطئ ، وقد إستطاعوا أن يواجهوا أنفسهم ويروضوها على قبول تلك الحقيقة ، فقضوا على غرورهم وطامنوا من جماح كبريائهم ، فلم يعصف بعقولهم جنون العظمة وهوسة التمجد ، وأكثر هؤلاء من العباقره الممتازين لأن العبقرى المعطاء السخى الخاطر لا يرى غضاضة فى الإعتراف بالفضل ، وكبار النفوس فى الأغلب الأعم متواضعون معتدلون لأنهم يعرفون الكثير عن الطبيعة الإنسانية ، والتواضع هو معرفة نواحى النقص وجوانب الضعف فى الإنسان ، فى حين أن الغرور هو المغالاة بقيمة النفس وتقدير الإنسان ، فتقدير الجميل لون من ألوان تواضع العظيم ، وإنكار الجميل ضرب من ضروب غرور الصغير ، والعبقرية العقلية أو العظمة النفسية ليست من

الأشياء المطردة المألوفة ، بل هى لسوء الحظ من الأشياء القليلة النادرة ، فلا عجب من الدهشة التى إحتوت الفضيلتين ، فضيلة الإحسان وفضيلة عرفان الجميل عند التقائهما لأول مرة فى الحفل الذى روى لنا خبره الروائى الكبير إيفان ترجنيف .

العدالة الإلهية

فى الإصحاح الثالث عشر من سفر أيوب يقول أيوب فى رده على أصحابه وتحدثه عن الذات العلية «إنه ولو قتلنى أبقى آملاله ، غير أنى أحتج عن طرق أمامه» وهذه الكلمة التى يجتمع فيها الإيمان التام بطائف من الإنكار والمروق ، وتمترج فيها الثقة المطلقة بظل من الشك والارتياب ، تختصر تلك الحجج والبينات التى يقدمها أيوب دفاعاً عن نفسه ، وتعزيزاً لموقفه ، بعد أن حاول كتم بثه ، وقمع عواطفه ، والصبر على ما ابتلاه به الله من فادح الخطب ومبرح الألم فى ذلك السفر القيم البعيد المغزى المنسوب إليه ، وهو من أروع أسفار العهد القديم ، وأحفلها باللمحات الكاشفة ، والنظرات النافذة ، والخواطر الجريئة ، وقد تناول بصراحة قليلة النظير موقف الإنسان «مولود المرأة ، قليل الأيام ، كثير الشقاء» من الله «صانع عظائم تفوت البحث ، وعجائب تفوق العد» والتماس الإنسان العدالة ، وبحثه عن الحكمة فى حوادث الحياة ، وحقائق الوجود وهو يصور أبدع تصوير وأدقه وأصدقه الصراع الشديد بين الشكوك التى تساور الإنسان من ناحية وجود عدالة إلهية متجلية فى تجارب البشر ، ومصاير الأمم ، والإيمان القوى الذى يحاول أن يدرأ عن نفسه غوالب الشكوك ، ويتقى هجماتها ، وتمكنه فى النهاية من مطاردتها وقهرها .

وهذا السفر يكشف عن مرحلة هامة من مراحل تفكير بنى إسرائيل الدينى

عندما بدأت الشكوك تتسرب إلى الاعتقاد القائل بأن الرجل الصالح المستقيم يلقى فى حياته المثوبة العاجلة ، لاستقامة طرقه ، وسلامة طويته ، وأن من يجانب الصلاح ويقترف الآثام ، يحل به العقاب ، وينال الجزاء الوفاق ، فقد لوحظ أن حقائق الحياة اليومية وحوادثها المتواترة المألوفة لا تؤيد هذا الاعتقاد الساذج ، ولا تؤكد أن الشرير يلقى جزاء شره ، وأن الخيّر يثاب على ما قدمت يداه ، بل قد يغلب على أمره وتجنى عليه استقامته . وقد أخذت هذه المسألة تشغل العقول ، وتقلق النفوس ، وتثير الخواطر ، فهل يُشَك فى العدالة الإلهية أو أن هناك فى وقائع الحياة ، وحركات الكون عدالة تخفى على العين وتدق عن الفكر متوارية فى هذا الظلم البادى ، وبذلك تتسع آفاق فكرة العدالة ، وتسمو وتكتسح ما فى طريقها من الاعتراضات التى تنم على النظر الكليل والفهم القاصر؟ وكان يزيد الأمر خطورة أن فكرة الحياة الأخرى لم تكن بعد قد استبانت ظلالها واتجهت إليها الأفكار .

وسفر أيوب يتناول هذه المسألة بحذافيرها ، ويقلبها على وجوهها المختلفة ويبين معضلاتها فى صورة سافرة ، وبمنطق أخّاذ ، وبلاغة ساحرة . فأيوب فى هذا السفر النفيس يتحدث عن حنين الروح إلى العدالة ، وظمئها إلى الاطمئنان على إيمانها الصادق ، واستسلامها الكامل ، وثورتها على حقائق الحياة البغيضة وتجاربها المريرة ، وما يثيره فى النفس من ألم فشل الخيرين الصالحين والأتقياء البررة ، وتوفيق الأشرار الفجرة ، وجماعة المنافقين والسلابين والدجالين ، بل يحاول أيوب أن يوضح أن السكوت على ذلك ، واحتماله والصبر عليه ، والإحجام عن مواجهته ، ضرب من النفاق والمخادعة وعدم الأمانة . فهو يقول لأصحابه فى حواره معهم فى الإصحاح الثالث عشر « ذلك كله قد رأته عينى وسمعته أذنى ، وفطنت له ، وما تعلمون فإنى أنا أيضاً أعلمه لا أقصر عنكم فى

شيء ، لكني إنما أخاطب القدير ، وأود أن أحاج الله ، أما أنتم فإنما تُضَمِّدون بالكذب وطبكم باطل ، من لى بأن تسكتوا فيكون لكم فى ذلك حكمة ، اسمعوا حججي وأصيخوا إلى دعاوى شفتى ، ألإرضاء الله تتكلمون بالظلم ، أم لأجله تنطقون بالبهتان ، ألعلكم تحابون أم عن الله تخاصمون ؟ أيحمد ذلك يوم يفحصكم أم أنتم تخدعونه كما يخدع إنسان ؟ بل ليوبخنكم على محاباتكم الخفية وليرعبنكم جلاله ويقع عليكم ذعره » .

فيجب إذاً مواجهة المشكل من جميع نواحيه ، والإحاطة بجملته وتفصيله وقد ظل أيوب خلال الشكوك التى طغت على نفسه ، والآلام التى وقذته محتفظاً بيقينه فى الله ، واثقاً منه ، متكلاً عليه ، وفى النهاية زكاه الله وأيده لاستقامته التى أنكرها عليه أصحابه لما قرعت مروته الخطوب ، ونزلت به نوازل الشقاء ؛ وواضح أن الفكرة التى يرمى إليها السفر هى أن النكبات المتلاحقة لا ينبغى أن تعصف باليقين أو أن تضعف الإيمان ، لأنها اختبار يصهر معدن الرجل ، ويعجم عوده ، ويخرج منه المؤمن أقوى وأصلب ، وأطهر وأنقى .

ولكى يوضح السفر المظاهر المختلفة ، والجوانب المتعددة لهذا المشكل يعرض المسألة فى قالب تمثيلى ، وثوب روائى ، فهو يرسم لنا صورة شيخ أو أمير من أمراء البادية جم الثراء ، عظيم الجاه ، ورأس أسرة كبيرة ، وهو رجل موفق فى أعماله ، بار بأهله وبالناس ، يجبر كسر الفقراء ويغمرهم بشآبيب كرمه ، وينصحهم فى مشكلاتهم ، ويعينهم على احتمال الأعباء ، وهو يخشى الله ، فلا يتداخله العجب ، ولا يمشى فى الأرض مرحاً ، وكلما أمعن فى الخير ، وجاد بالهبات ، زكت ثروته ، ورغدت عيشته ، ولنسمح له بأن يتحدث قليلاً عن نفسه[1] « كنت أنجى البائس المستغيث واليتيم الذى لا معين له ، فتحل علىَّ بركة

---

(١) الإصحاح ٢٩ .

الهالك ، وأجعل قلب الأرملة متهللاً ، لبست العدل فكان كسانى ، وما برح قضائى حلتى وتاجى ، كنت عيناً للأعمى ورجلاً للأعرج ، وكنت أباً للمساكين أستقصى دعوى من لم أعرفه ، وأحطم أنياب الظالم ، وأنزع فريسته من بين أسنانه» .

ولكن هذه الحياة المثمرة المباركة ، والسيرة الصالحة العطرة ، تعدو عليها العوادى ، ويصيبها من الدهر ريب ، وذلك أن الشيطان يبدو أمام الله ويتحدى صلاح أيوب ، وتدور هذه المحادثة بين الله والشيطان :

الرب ! «من أين أقبلت ؟» .

الشيطان : «من الطواف فى الأرض والتردد فيها» .

الرب : «هل ألقيت بالك إلى عبدى أيوب فإنه ليس له مثيل فى الأرض ، إنه رجل سليم مستقيم يتقى الله ويجانب الشر» .

الشيطان ! «أمجاناً يتقى أيوب الله ! ألم تكن سيجت حوله وحول بيته وحول كل شىء له من كل جهة ؟ ، وقد باركت أعمال يديه فانتشرت أمواله فى الأرض ، ولكن ابسط يدك وامسس جميع ماله فتنظر ألا يجدف عليك فى وجهك» .

فيرخص الله للشيطان فى أن يختبر أيوب ، ويبلو عقيدته ، فيفنى تالده وطارفه ، ويرميه بالمرض العضال ، والآلام المضنية ، ولكن أيوب يثبت ويصبر ، ولما قالت له امرأته «جدف على الله ومت» أجابها «إنما كلامك كلام إحدى السفيهات أنقبل الخير من الله ولا نقبل منه الشر ؟» ولا يخالجه الشك فى الله : ولكنه على عميق إيمانه ، وراسخ عقيدته ، فى كربة حرجة ، وأزمة شديدة ، وفى حيرة ودهشة من أمر العدالة الإلهية ، ولما جاءه أخلاؤه لمواساته والتخفيف عنه والتهوين عليه ، ورأوا شدة كآبته ، لم يكلمه أحد منهم بكلمة ،

وبعد صمت طويل حاول أيوب تنفيس كربه بالتحدث عما أصابه ، فانفجر قائلاً «لا كان نهار ولدت فيه ولا ليل قيل فيه قد حبل برجل ، ليكن ذلك النهار ظلاماً ، ولا رعاه الله من فوق ولا أشرق عليه نور ، لتستبد به الظلمات وظلال الموت ، وليقر عليه الغمام ولتروعه كواسف النهار ، وذلك الليل ليشمله الديجور ولا يحصين به أيام السنة ، ولا يدخلن فى عداد الشهور ، وليكن ذلك الليل ثاكلاً ولا يسمع فيه ترنيم . . . لتظلم كواكب غسقه ، وليترقب النور فلا يكون ولا ير أجفان الفجر لِمَ لمْ أمت من الرحم ؟ هلا فاضت روحى عند خروجى من البطن ؟ ما كنت أخشاه قد غشينى ، وما فزعت منه قد رهقنى ، فلا طمأنينة لى ولا قرار ولا راحة ، وقد داهمنى الاضطراب» .

وكبر على أصدقائه أن تنتقض مرائره ، ويهى جلده ، ويثور بالقضاء ثورته ، فأخذوا ينصحونه بإعادة النظر فى ماضيه ، والاعتراف بالآثام التى استوجبت سخط الله ، واستنزلت عقابه ، واشتدوا عليه فى ذلك ، وسلقوه بألسنتهم ، وحاولوا أن يفرضوا عليه فرضاً فكرة أن كل ما يصيب الإنسان من كوارث الدهر إنما سببه أخطاء تورط فيها ، وذنوب ارتكبها وأن على الإنسان أن يلقى الحادثات بنفس راضية مستسلمة ، مذعنة للقضاء مطمئنة إلى عدالته ، ولكن أيوب لا يقنع بهذه الحجة ، ويرفض رفضاً قاطعاً هذه الوجهة من وجهات النظر ، فهو أعرف من غيره بماضيه الناصع الصفحات ، وحياته الخالية من الشوائب ، وهبه أخطأ مثل سائر أبناء الأرض الفانين فأين عفو الله وواسع رحمته وفائض حنانه ؟ وكيف يلتمس الصفح ، ويرجو المغفرة عن آثام لم يقترفها ولم يأته عنها خبر ؟ فهو يقول لأصحابه «علمونى وأنا أصمت ، أنبئونى فى أى شيء ضللت ؟ ما أوقع كلمات الحق ! ولكن فى أى شيء ملامتكم ؟» .

فينبرى له صاحبه بَلْدد الشوحى ويقول له : «إلى متى أنت تنطق بمثل هذا

وأقوال فيك كريح عاصف ، ألعل الله يحرف القضاء ، أم القدير يأود العدل ، إن كان بنوك قد خطئوا إليه فقد أسلمهم إلى يد معصيتهم ، أما أنت فإن بكرت إلى الله والتمست رحمة القدير ، وكنت زكيًّا مستقيماً فإنه ينتبه إليك ويرد إلى السلام مقر برك» .

ولكن أصحابه فى وادٍ وهو فى واد آخر ، فهو يأبى أن يكون منافقاً تجاه الله ، ولا يقبل أن يزيف شعوره ، ويزور عواطفه ، ويقول كلاماً هو غير مقتنع بصحته ، وهو يعلم علماً ليس بالظن أن الله شديد البأس وأنه «يزلزل الأرض من أساسها ، فترتجف عمدها ، يأمر الشمس فلا تشرق ، ويختم على الكواكب ، هو الباسط السماوات ، والسائر على متون البحر ، إن سلب فمن ذا يرده أو من يقول ماذا تفعل» ، هو يعلم ذلك ، ولكنه يود الاحتجاج بين يديه ، وعرض قضيته عليه «ذلك الذى يسحقنى فى الزوبعة ويثخننى بالجراح لغير علة» وليس الله بإنسان مثله حتى يجاوبه ، ويرد عليه حججه ، وهو واثق من براءته ، ولذا يحرص على أن يستمسك بحقه ، ويرفع صوته ليقول «ليرفع عنى عصاه ، ولا تروعنى مخافته ، حينئذ أتكلم ولا أرتاع منه ، لأنى لا أجد مثل تلك التّهم فى نفسى» .

وأيوب كما يظهر من سيرته رجل إنسانى النزعة ، واسع العطف ، لا يعيش لنفسه وحدها ، فهو لا ينظر إلى الرزايا التى أصابته من الناحية الفردية ، وإنما يتخذ نفسه مثلاً لما يحدث فى الدنيا ، ويناضل عن قضيته من الوجهة العامة ، لأنها قضية البشر جميعاً لا قضية أيوب وحده ، فالحظوظ فى الحياة البشرية غير قائمة على ذلك المبدأ البسيط ، المثوبة والعقاب الذى يحاول أصدقاؤه أن يرغموه على قبوله ، وكيف يغالط فى الحقيقة نفسه وهو يرى الصالحين الأتقياء يظلمون ويقهرون ، ويرى الأشرار يتقلبون فى الرفاهة وأحوالهم زاكية ؟ فالحظوظ ليست

مرتبطة بالقيم الأخلاقية والفوارق الأدبية بين الناس ، وأحوال الحياة توحى إلى الإنسان أن السعادة والشقاء والآلام والمسرات موزعة فى هذه الدنيا توزيعاً غير معقول ، فهو يتساءل «لماذا يحيا المنافقون ويسنون ولماذا يعظم اقتدارهم ؟» ويصف فوضى الحظوظ فيقول «هذا يموت فى معظم وفره وقد عمته الدعة والطمأنينة وذاك يموت فى مرارة نفسه ولم يذق طيباً» .

وهكذا تروعه عثرات الحظ ، ومتناقضات الحياة ، ولكنها لا تهز اعتقاده بالله ، ولا تنال من يقينه ، وهذا الاعتقاد المتين يفجّر فى نفسه ينابيع الأمل ، والله فى رأيه قد تفرد بالحكمة ، وهو يقول فى ذلك «أما الحكمة فأين توجد ، والفطنة أين مقرها ؟ لا يعرف الإنسان قيمتها ولا وجود لها فى أرض الأحياء ، الغمر قال ليست فى ، والبحر قال ليست عندى – إنها محجوبة عن عينى كل حى ، ومتوارية عن طير السماء ، الهاوية والموت قالا قد بلغ مسامعنا خبرها ، الله يبصر سبلها وهو عالم بمكانها ، لأنه يبلغ بطرفه أقاصى الأرض ، ويحيط بجميع ما تحت السموات ، وإذا جعل للريح وزناً وعاير المياه بمقدار ، وجعل أحكاماً للمطر وسبيلاً للصواعق القاصفة ، حينئذ رآها وأخبر بها وأثبتها وسبرها ، وقال للبشر ها إن خشية الرب هى الحكمة ، واجتناب الشر هو الفطنة»[1].

وأيوب فى أشد أوقات محنته ، وعندما اشتملت عليه الهموم ، وأرمضته الآلام ، وانثالت إليه الخواطر السود ، وزعزعت ثباته ، وهزت بنيانه ، لم يفارقه الإيمان بالله ، وإنما تطلع إلى استيضاح أثر العدالة الإلهية والعناية الربانية ، فى طرائق الحياة وتجارب البشر ، ولما أشكل عليه أمرها ، واستبهمت طرقها ، ود من صميم نفسه ، وأعماق وجدانه لو أن الله يجعل طرقه وأساليبه قريبة من

---

(١) الإصحاح ٥٩ من سفر أيوب (الكتاب المقدس طبعة مطبعة اليسوعيين ببيروت سنة ١٨٩٧) .

الأفهام ، بينة للمخلوقات ، حتى يكون إيمانهم بعدالته قائماً على أساس متين ، ومدعماً بالحجج الواضحة ، وفى ختام السفر يجاوب الله أيوب من العاصفة ، ويوبخه على نقص إيمانه ، ويقول له «إنى سائلك فأخبرنى ، أين كنت حين أسست الأرض؟ بين إن كنت تعلم الحكمة . . . على أى شىء أقرت قواعدها أم من وضع حجر زاويتها ؟ أأنت فى أيامك أمرت الصبح وعرّفت الفجر موضعه ؟ هل اخترقت إلى لجج البحر أم تخطيت فى مخادع الغمر؟ هل انفتحت لك أبواب الموت أم عاينت أبواب ظلال الموت ؟ هل أحطت بعرض الأرض ؟ أخبر إن كنت عالماً بذلك . . . أأنت تشد عقد الثريا ، أم أنت تحل نطق الجوزاء ؟ . . . من وضع الحكمة فى الإعصار أم من آتى النوء الفهم ؟ . . أبحكمتك يستقل البازى فى الجو ويبسط جناحيه نحو الجنوب ، أم بأمرك يحلق النسر ويجعل وكره فى العلاء ؟ هل يخاصم القدير لائمه ، ويجيب الله مشتكيه ؟) .

فيجيب أيوب قائلاً «هأنذا ذليل فماذا أجيبك ؟ إنى أجعل يدى على فى» فيسترسل الله فى لومه وتعنيفه ويقول له «العلك تنقض قضائى أتؤثمنى لتبرر نفسك ؟ ألك مثل ذراع الله ، أترعد بمثل صوته ؟ إذاً فتزين بالعظمة والسمو والبس المجد والبهاء» .

ويقر أيوب بعجزه وحسور فهمه فيقول «إنى قد نطقت بما لا أدرك ، بمعجزات تفوقنى ولا أعلمها» ويرفع الله غضبه عن أيوب ، ويتم عليه نعمته ، ويبارك آخرته ، ويغضب على أصحابه لأنهم قد داهنوا فى دينهم ، ولم يتكلموا أمامه بحسب الحق كعبده أيوب .

وبيت القصيد فى هذا السفر هو أن مسألة الإيمان بالله ليست مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالاعتقاد بالعدالة المباشرة ، والمثوبة السريعة ، والعقاب العاجل ، لأن

هذه الفكرة مناقضة لحقائق الحياة ، وتجر إلى اتهامات باطلة ، وتستدعى النفاق والمغالطة وتزييف الواقع ، وما يصيبنا من شقاء قد يكون اختياراً ليقيننا ، وقد يطول شقاء الإنسان وتمتد محنته ، ولكن واجب الإنسان أن يتحمل ويصبر ، ويحتمل الأذى ، قرير العين ، وادع النفس ، لأن الله قوى المراس ، بعيد الحكمة ، وما دام الله قادراً وحكيماً فإن ما قدم الإنسان من خير لن يذهب عبثاً .

فأى ضوء يرسله هذا السفر القديم على مشكلات عصرنا الحاضر وموقفنا اليوم ؟ لا ريب أن عصرنا الحاضر عصر نقد وتمحيص ، فكل عقيدة تعرض الآن على محك البحث ، وكل مفكر أمين يحاول أن يغربل عقائده ، ويفحص محتوياتها ، ويشّرح أجزاءها ، ليرى ويستخلص الجوهر الأصيل ويستبعد القشور والدخيل ، وبعض الناس يقفون من مشكلات العصر الحاضر موقف أصحاب أيوب ، ويأبون مواجهة معضلات العصر الحديث ، أو يعرضون لها حلولاً لا تلائم جدتها ولا تتفق مع طبيعتها ، وأساس الحياة الروحية الحق هو الاعتقاد بأن نظام العالم نظام يقره العقل وتشرف عليه العناية ، وأن القوى الكونية التى يبدو طرف منها فى حياتنا الإنسانية وحياة العالم قاطبة قوة حكيمة وخيرة ، وأن وجودنا له غاية كبرى مقدسة لو عملنا على تحقيقها دنونا من الكمال المنشود وإن قصّرنا عمّت الفوضى وساد الاضطراب .

وما يتطلع إليه الإنسان فى العصر الحاضر ليس المثوبة الشخصية أو العقاب الفردى ، وإنما إنقاذ الإنسان من سيطرة الشر ، وانتشاله من مخالب الهلاك والدمار الذى ساقته إليه الأنانية العمياء والمطامع الملتوية ، وتمكينه من توسيع دائرة عطفه ، والسمو بتفكيره ، وأن يقلل من النظرة الفردية ، والتفكير الطائفى ، والتعصب الطبقى ، وأن يعتبر الأفراد والأمم أعضاء أسرة واحدة ، وأن

الخير الأسمى لا يمكن أن تحتكره أمة أو تستأثر به طبقة ، والحياة الإنسانية معقدة متراكبة متداخلة الأجزاء متشابكة الفروع ، فلا يمكن أن نسمو بالإنسان من الناحية العقلية أو الفنية أو الأخلاقية ، إذا أهملنا الناحية الاقتصادية ، وعدم تقديرنا هذه الناحية جعل الكثير من مجهودات المصلحين ذوى المثالية السامية يذهب أدراج الرياح .

ومعركة تنازع البقاء القائمة فى العصر الحاضر تكشف لنا عما تنطوى عليه الحياة من قسوة رهيبة ، وفظاعات منكرة ، وتتمخض عن الكثير من المآسى المروعة التى تلقى ظلالاً ضخمة على اليقين والإيمان ، ولا مفر للإنسان من أن يتساءل . كيف ينشأ الخير ، ويتحقق الأمل فى عالم غاص بالكراهة والأحقاد الفائرة والشرور والآثام ، والعسف والإرهاق ؟ وما قيمة الحضارة والتقدم إذا كانت الكثرة الساحقة من الناس فى بقاع الأرض لا تزال تعانى الجهل والحرمان ، ولا تستمتع بنصيب معقول من خيرات الحضارة ؟ وهذه مشكلات قد يعجز عن الجواب عنها أحكم الحكماء وأعمق الفلاسفة ، ولقد استجار أيوب فى أحلك أوقات محنته بالقوة الإلهية واعتقد فى النهاية أن للعناية الإلهية خطة وتدبيراً قد تعجز عقولنا عن إدراكه ، وأن العدالة المطلقة والصلاح الكامل هما المسيطران على العالم ، وأن هناك غاية سامية يعمل الكون على تحقيقها ؛ ويبدو أثرها فى حياتنا المحدودة ، والجواب الذى تلقاه أيوب من الله على ما وجهه إليه من ملاحظات هو أن يتأمل عظمة الكون وجلاله ، ويجيل الطرف فى روائعه وبدائعه ، وهل مثل هذا الخالق العظيم والمدبر القدير لا يوثق بعد ذلك بعدالته ولا يعتمد عليه ؟ ألم يكشف العلم بدائع وغرائب لم يعرفها أيوب ولا عصر أيوب ، إننا نشكو وجود الألم فى الحياة ، ولكن تطور الحياة وحركة التقدم ، وطبيعة التجديد تستلزم وجود الألم ، وربما كان من الخطأ أن ننكر أن الإنسانية

برغم الهفوات والجرائم والحروب والويلات تتقدم إلى الأمام ، وترتفع تدريجاً إلى مستوى أرفع من الفكر والأخلاق ، وقد اتسع المثل الأعلى وتهذب ، ونفس هذا الاتساع والتهذيب يحفز النفوس ويوجه العزائم ، والتبرم بالحياة ، والملل من الحاضر دافع إلى استكمال النقص واستدراك العيوب ، وكل من يشك فى عدالة الكون ويتطاول على نظامه وأحكامه يصح أن يوجه إليه قول الأستاذ عبد الرحمن شكرى :

أليس الكون أكبر منك شأناً وأولى بالمقـــادر والنظام ؟

الحكمة الحزينة

غلب على الكثير من الناس فى مختلف العهود الاعتقاد بأن بعض الذين أوتوا الحكمة ، ورزقوا البصيرة ، وخبروا الحياة ، أدركوا فى النهاية أن الدنيا متاع الغرور وباطل الأباطيل ، وأنها ليس فيها ما يستحق أن يشغل الخاطر ، ويملأ النفس ، ويأسى عليه القلب ، وأننا بعد الكد والعناء وطول المزاولة لا نفيد منها شيئاً ولا نظفر بطائل ، وأن لا أمل فى إصلاح أمورها ورتق فتوقها ، لأن – كما يقول الجامعة – «المؤود لا يمكن أن يثقف ، والخلل لا يمكن أن يسد» فما جدوى تحصيل العلم واقتناء الحكمة إذا كانت الحماقة والسخف هما لحمة الحياة وسداتها ؟ وما قيمة نعيمها الموموق إذا كان يعقب الحسرات ، وخيرها العميم إذا كان مصيره إلى بلى ونفاد ؟ والإنسان هذا السائح الغريب ، والطيف الزائر ، سرعان ما يطوى ذكره ، ويذهب خبره مثل سائر السوائم والحشرات .

وليس يغنى عنه رهافة حسه ، والتماع ذكائه ، وسمو حكمته وعميق فلسفته ، وهذه الحكمة الحزينة تطالعنا فى آداب الأمم القديمة والحديثة ، أحياناً ساذجة بسيطة ، وأحياناً أخرى متدرعة بالمنطق ، متلفعة بالفلسفة ، وقد وجدت معبرين عنها ومتأثرين بها فى متباين العصور ، ولا سيما العصور التى اضطربت فيها العلاقات الإنسانية ، وتفشى الفساد فى الحياة الاجتماعية ، وساءت أحوال الإنسان حتى انهزمت نفسه ، وكلّ عزمه ، واستمكن منه الاعتقاد بأن زوال

الحياة والفناء أخف محملاً ، وأهون أمراً من الصبر على لأواء العيش ، ومعاناة مساوئ الحياة .

وتوازن هذه الحكمة بين نقائص الحياة وعيوبها وقدرة الإنسان على النهوض والمقاومة والإصلاح ، فترى الأولى كثيرة متعددة ، ضخمة هائلة ، وترى قدرة الإنسان قاصرة محدودة ، هزيلة مستضعفة ، فتدعو إلى رفض الحياة أو ما يشبه الرفض ، وتوصى بالانسحاب من المعركة ، وتؤثر السكون والصمت والعكوف على النفس .

ويعتز أصحاب هذه الحكمة برأيهم فى الحياة ، ويستمسكون بمذهبهم ، ويستعذبون حزنهم ، ويعزونه إلى طبيعة الحياة وحركات الكون ، ويظنون أن مسلكهم المترفع ، واعتزالهم الوديع هو الموقف اللائق بالرجل المستنير المصقول الوجدان الذى تجلت عن ناظريه غيابات الوهم ، وتبدت له حقائق الأمور ، وأصبح لا تطبى لبه الأهواء ، ولا تستعبده الشهوات .

والذى يسترعى النظر فى تفكير أصحاب هذه الحكمة أنهم يقصرون تفكيرهم على حقائق خاصة ويفسرونها تفسيراً ملائماً لمزاجهم ، والحالة النفسية الغالبة عليهم ، ويغضون النظر عن حقائق أخرى لها أهميتها ومكانها فى الحياة ، مما يدل على أن لمزاجهم الخاص تأثيراً كبيراً فى اختيارهم للحقائق وتوجيه تفكيرهم ، وتلوين حكمتهم ، فالجامعة مثلاً يقول «جميع الأنهار تجرى إلى البحر ، والبحر ليس بملآن ، ثم إلى الموضع الذى جرت منه إلى هناك تعود لتجرى أيضاً» وهذا من الأشياء التى ساءته ، ولكن أى ضير على الإنسان فى كون المياه تجرى إلى البحر وأنه ليس ممتلئاً ، وأنها تعود إلى حيث أتت ؟ وماذا يثير حزننا فى ذلك ؟ وهل الاستقرار خير من الحركة والتنقل ؟ تأثير المزاج واضح فى تفسير هذه الحقيقة .

وسفر الجامعة هو التعبير التقليدى «الكلاسيكى» عن مثل هذه الحكمة ، والوضع النهائى لها الملائم لكل العصور.

ومؤلف هذا السفر قد طاف بالشك ، ومارس الملل من الحياة ، وضمن هذا السفر القيم اعترافاته وخواطره ، وخلجات نفسه وخلاصة تجاربه ، وقد أجرى الحديث على لسان «الجامعة» والمفروض أن الجامعة هو سليمان بن داود ملك أورشليم .

ويرى رينان – فى المقدمة البديعة التى قدم بها ترجمته لهذا السفر إلى اللغة الفرنسية – أن مؤلف السفر أراد أن يظهر خليفة داود على المسرح ، وقد بدا له أن هذا الملك الموصوف بالحكمة ، والذى جمع المجد من أطرافه شخصية مناسبة للموضوع الذى أراد تناوله ، وهو إظهار أن كل شىء باطل ، فسليمان قد وصل إلى قمة المجد ، وبلغ أقصى ما بلغه إنسان ، وأتيح له أكثر من غيره أن يكشف عن تفاهة الحياة ، ويرفع الستار عن خدعة العيش ، ويرى سخافة الآراء التى يقوم عليها المجتمع الإنسانى .

والمؤلف فى رأى رينان قد اختار سليمان كما اختار أفلاطون بأرمنيدس فى المحاورة الموسومة باسمه لشرح آراء الايليين ، فالأفكار المعزوة إلى سليمان هى الأفكار المناسبة للصورة التى رسمتها التقاليد لملك أورشليم .

ويردد السفر فكرة أن الحياة باطل الأباطيل وقبض الريح ، وأن تأمل «الدراما» البشرية ينتهى بنا إلى الاعتقاد بأن الحماقة غالبة ، وأنها أكثر مما نقدر ، وهو يستخلص هذه النتيجة من حقائق شتى ، ويصل إليها من طرائق مختلفة ، والحياة فى نظر مؤلفه سلسلة من المظاهر تتوالى متشابهة فى شبه دائرة ، فلا تقدم ولا تجديد لأن الماضى يشبه الحاضر ، والحاضر يشبه المستقبل ، والحاضر بغيض مكروه ، ولم يكن الماضى أصلح منه حالاً ، والمستقبل لا يفوقهما ، وكل محاولة

لتحسين حالة الإنسان ، وإقالة عثاره ، والنهوض به ، محاولة فاشلة غير موفقة ، لأن الإنسان محدود فى مواهبه ولم يؤت من العلم إلا قليلاً ، والشر الذى نعتقد أنه قد غلب على أمره سرعان ما يعود أقوى سعاراً وأشد استفحالاً مما كان قبل هزيمته واندحاره . ويؤكد لنا المؤلف أنه قد مارس كل مهنة ، وعالج كل شىء فلم يجد إلا عبثاً وباطلاً ، وهو يلخص لنا رأيه فى الفصل الأول من السفر فيقول« أى فائدة للبشر من جميع تعبهم الذى يعانونه تحت الشمس ؟ جيل يمضى وجيل يأتى والأرض قائمة مدى الدهر ، والشمس تشرق والشمس تغرب ، ثم تسرع إلى موضعها الذى طلعت منه ، جميع الأمور تعيى فلا يستطيع الإنسان أن يشرحها ، لا تشبع العين من النظر ولا تمتلئ الأذن من السمع ، ما كان فهو الذى سيكون ، وما صنع فهو الذى سيصنع فليس تحت الشمس شىء جديد» .

ثم يروى لنا جانباً من تجاربه الخاصة التى تدعم هذا المذهب فيقول « اتخذت أعمالاً عظيمة ، بنيت لى بيوتاً وغرست لى كروماً ، وأنشأت لى جنات وفراديس وغرست فيها أشجاراً من كل ثمر ، وصنعت لى برك ماء لأسقى بها الخمائل النامية الأشجار ، واقتنيت عبيداً وإماء ، وكان بيتى عامراً بالبنين ، ورزقت مواشى كثيرة من البقر والغنم حتى فقت جميع الذين كانوا قبلى بأورشليم ، وجمعت لى فضة وذهباً مع أموال الملوك والأقاليم ، واتخذت لى مغنين ومغنيات وأصناف لذات بنى البشر وحليلة وسرارى ، فزدت عظمة ونمواً على جميع الذين كانوا قبلى بأورشليم ، والحكمة أيضاً لم تبارحنى ، وكل ما ابتغته عيناى لم أدعه يفوتهما ، ولا منعت قلبى من الفرح شيئاً بل فرح قلبى بكل تعبى ، ثم التفت إلى جميع أعمالى التى عملت يداى ، وإلى ما عانيت من التعب فى عملها فإذا بالجميع باطل ولا فائدة فى شىء تحت الشمس» .

ولا فائدة من الاستمتاع باللذات والانغماس فى الترف ، والتهالك على

النساء ، لأن كل ذلك لا يخلف وراءه غير الحسرات والآلام ، والاعتصام بالعقل ، والتعلق بالمعرفة ، والإقبال على العلم يضنى الجسم ، ويتعب الروح والإنسان بعد ذلك كان لا يدرى شيئاً ،وسيظل كذلك فى عمياء من أمره . وحقيقة أن الحكمة تفضل الحماقة لأن «للحكيم عينين فى رأسه أما الجاهل فيسير فى الظلام» ولكن ما قيمة هذه الحكمة التى لا تجلب خيراً ولا تدفع شرًّا ؟ والذى يحدث للجاهل يحدث للحكيم «ووا أسفاً ! يموت الحكيم كالجاهل» وقد نتعب ونجهد ليرثنا الجهال .

ثم كيف نطمئن ويهدأ بالنا والعدالة فى هذه الدنيا موضع الشبهة ومظنة الاتهام ؟ «رأيت أيضاً تحت الشمس فى موضع العدل جوراً وفى موضع البر نفاقاً» وقد ترك ذلك كله فى نفس الجامعة – أو مؤلف السفر – أقوى أثر حتى جعله يغبط الموتى والذين لم يوجدوا فهو يقول «ثم التفت فرأيت جميع المظالم التى تجرى تحت الشمس وإذا بدموع المظلومين وليس لهم من معز وفى أيدى ظالميهم قدرة ؛ وهم لا معزى لهم ، فغبطت الأموات الذين درجوا من قبل على الأحياء الذين هم باقون حتى الآن ، وخير من كليهما من لم يوجد حتى الآن لأنه لم ير العمل الشرير الذى يفعل تحت الشمس» .

وأمثال هذه المظاهر جعلته كاسف البال موجع القلب ، يستطيب الحزن ويؤثره على الابتهاج والاستبشار ويقول «يوم الموت خير من يوم الولادة ، والدخول إلى بيت النياحة خير من الدخول إلى بيت الوليمة ، والحزن خير من الضحك ، لأنه بكآبة الوجه يصلح القلب ، وقلب الحكماء فى بيت النياحة ، وقلب الجهال فى بيت الفرح» .

والجامعة مثل سائر المتشائمين سيىء الرأى فى المرأة وسوء الرأى هنا من الأدلة الواضحة على شدة الكلف بها ، والعناية بأمرها ، فهو يقول عنها «جلت بقلبى

لأعلم وأبحث لألتمس الحكمة وحقيقة الأمور ، ولأعلم نفاق الجهال وجنون الحمق ، فوجدت أن ما هو أمر من الموت المرأة التى قلبها أحبولة وشبكة ، ويداها قيود ، من كان صالحاً أمام الله فإنه ينجو منها وأما الخاطئ فيقتنص بها » .

على أنه يعود فيمتدح الفرح ويوصى به « مدحت الفرح لأنه ليس فى يد الإنسان خير تحت الشمس غير أن يأكل ويشرب ويفرح ، فهذا ما يثبت له من تعبه أيام حياته التى منحها الله له تحت الشمس » .

وليقنع الإنسان بالمتعة مع المرأة التى أحبها « تمتع جميع أيام حياتك الفانية بالعيش مع المرأة التى أحببتها وأوتيتها تحت الشمس لتقضى أيامك الفانية ، فإن ذلك حظك من الحياة ومن تعبك الذى تعانيه تحت الشمس » .

والحكمة عنده خير من القوة ولكن مع ذلك فإن « حكمة المسكين مزدراة وكلامه غير مسموع » .

وإذا عاش الإنسان وطالت أيامه فهو يوصيه بالحذر واصطناع التقية لكى لا يخلق لنفسه المشكلات ويجر عليها المتاعب ، والحكمة التى تسيئ الظن بالوجود والناس لا يستكثر عليها الحذر والتخوف ، والحرص على الهدوء وتجنب الحركة والمجهود فهو يوصيك بأن « لا تلعن الملك ولو فى فكرك ، ولا تلعن الغنى ولو فى أخادير مضجعك ، فإن طير السماء ينقل الصوت وذا الجناح يخبر بالكلام » .

ويعاوده حبه القديم للحياة وولوعه بالاستمتاع ولكن سرعان ما يبدو له ظل الموت أو شبح الفناء فهو يقول « النور بهيج والعين تلتذ بنظرات الشمس ، ولكن إذا عاش الإنسان سنين كثيرة وفرح فى جميعها فليتذكر أيام الظلمة أنها ستكون كثيرة فإن المستقبل كله باطل ، فأقص الغم عن قلبك وباعد السوء عن جسدك فإن الصبا وريعان العمر باطلان » .

وهذه الحكمة المتعبة الحزينة الزاهدة فى الكفاح وبذل المجهود ، والتى ترى كل ما تحت الشمس عبثاً وباطلاً لا يستحق العناء ولا يستوجب الاهتمام هى حكمة أهل الهدوء والإحساس الرهيف ومحبى السلام والصفاء ، وقد ينقص أصحابنا حرارة اليقين والإيمان ، وحماسة التعصب للعقيدة ، ولكنهم قوم كرماء النفوس ، طيبو الدخيلة ، قد فل من عزمهم انحطاط العصر وصروف الحياة المحزنة ، وهذه الحكمة الحزينة قد توحى الأخيلة الشعرية ، والخواطر الرقيقة ، ولكنها لا تسمو بالحياة ولا تبعث العزيمة ، لأن الحكمة الفعالة هى الحكمة المنتجة التى تلهم الأمل وتشيع فى النفس الابتهاج ، وتجعلنا نواجه الحياة والأقدار فى ثقة وأمل واستبشار وتحد إذا استلزم الأمر ، والحياة فى العصر الحاضر ممتلئة بأسباب الخوف والقلق ، فهى تلتمس الحكمة الواثقة الآملة ، الموجدة الخالقة ، التى تطلق النفس من أغلال الخوف ، وتذود عنها أشباح الهم والقلق ، وتعمل على إسعاد البشر ، ومناصرة الخير ، ومقاومة الشر .

فرويد والحرب

سيجموند فرويد عالم نفسي كبير ومفكر موهوب ، بل هو فى رأى العلامة ماكدوجال – أحد نقاده ومنافسيه من كبار علماء النفس الإنجليز – أعظم عالم نفسي عرفته الدنيا منذ عهد أرسطو ، وقد ولد فرويد فى سنة ١٨٥٦ ، ولا مفر لمفكر من أن يتأثر بوحى بيئته وإلهامات عصره ، والفترة التى بدأت تتكون فيها آراء فرويد ، وتتعين اتجاهاته ، وتتكشف خصائص تفكيره ، كانت فترة سريان الأفكار الحرة التى سادت فى أواخر القرن التاسع عشر من ناحية ، ومن ناحية أخرى فترة قيام الشركات التجارية الضخمة والمشروعات الاقتصادية الجريئة ، وانتشار أساليب الاحتكار على مدى واسع ، واشتداد المنافسة بين الدول على استغلال الأسواق واستيراد الخامات وتوزيع الإنتاج ، ويسمى غلاة الاشتراكيين هذه الفترة «الطور الأخير من أطوار النظام الرأسمالى» .

وكان العلماء فى هذه الفترة الدقيقة مأخوذين بحضارة العصر اللامعة ، مؤمنين بتقدم العلم ، يرودون آفاق المعرفة فى ثقة واطمئنان ، غير ملتفتين إلى ما كان ينساق إليه العالم من مسالك وعرة ، وما كان ينزلق نحوه من ظلمات مدلهمة ، ولا إلى ما كان يختبىء وراء استتباب الأمن ، واستقرار السلام من نزعات جامحة ، وأهواء متراكبة ، وعوامل اضطراب ، وبواعث فتن وهزاهز ، فلما استوفى النزاع أطواره ، وانتهى إلى غايته ، وزج بالعالم فى أتون الحرب الكبرى

السالفة ، استفاق العلماء من أحلامهم وأخذوا يفركون عيونهم ، ويتحدثون عن تقشع أوهامهم ، واستشعروا أنهم أسرفوا فى نسيان غريزة الكفاح ، وهى غريزة موصولة بالفطرة الإنسانية فى شتى استحالاتها ، ومختلف مظاهرها ، وأخذوا يعجبون كيف غاب عنهم أمرها حتى أخذتهم على غرة ، وكادت تهدم ما بنوا وتفسد ما استصلحوا .

ومن بين هؤلاء العلماء العلامة فرويد ، فقد كتب فى سنة ١٩١٥ يقول [١] «إننا مضطرون إلى أن نعتقد أنه لم تكن ثمة حادثة أشد هدماً وتحطيماً للكثير مما هو قيم ونفيس فى ثروة الإنسانية العامة ، ولا أكثر تضليلاً وإفساداً للكثيرين من أرجح الناس عقلاً وأثقبهم رأياً ، ولا أقوى استنزالاً لأسمى ما نعرف من مستواه الرفيع ، وقد أخذ العلم يفقد نزاهته البريئة من الأهواء ، النقية من الشوائب ، وشرع سدنته والحقد حشو نفوسهم يستمدون منه أسلحة يستعينون بها على هزيمة العدو وتخضيد شوكته ، وعلماء الأنثروبولوجى قد سبقوا إلى إعلان أن الخصم وضيع الجنس منحدر إلى التدهور ، وبدأ علماء النفس ينشرون رسائل يحللون فيها اعتلال عقلية العدو وسقم نفسه . . إنى أنتوى فى هذه الرسالة أن أفرق بين نوعين من العوامل القوية فى الاضطراب الفكرى الذى يستشعره غير المحاربين ، وهما زوال الوهم الذى سببته هذه الحروب ، وموقفنا المتغير إزاء فكرة الموت .

وعندما أتحدث عن زوال الوهم ، وتهتك ستره ، وانجلاء خطره ، يعرف كل إنسان ما أعنى ، ولا حاجة بى إلى أن أصطنع رقة العاطفة . وفى مستطاعنا أن ندرك ضرورة الشقاء الحيوية والنفسية فى اقتصاديات الحياة ، ولا يمنعنا ذلك من كراهة الحرب وذمها ، والتبرم بأساليبها وأغراضها ، وأن نستشرف فى شوق

---

(١) راجع ما كتبه فى كتاب Civilization, War & Death.

ولهفة العصر الذى تبطل فيه الحروب ، وينحسم شرها ، وحقيقة أننا كنا نسر فى أنفسنا أن الحروب لا ينتهى عهدها ما دامت الأمم تعيش فى أحوال متباينة ، وما دامت حياة الفرد مختلفة القيمة فى الأمم المتنوعة ، وما دامت الأحقاد التى تفصم ما بينها من عرى وتفسد العلاقات الحسنة صادرة عن قوى غريزية فى العقل ، ولكننا برغم ذلك أرخينا لأنفسنا عنان الأمل ، وطاف بأوهامنا أن الأمم البيض العظيمة التى تولت قيادة النوع الإنسانى ، والتى أصبح لها مصالح فى نواحى المعمور ، والتى كان لقواها الخالقة أجلّ أثر فى تقدمنا الصناعى وسيطرتنا على الطبيعة ، وفى محصولنا العلمى والفنى - أقول طاف بأوهامنا أن مثل هذه الأمم لابد أن توفق فى ابتكار أسلوب آخر لفض الخلافات ، وعلاج تصادم المصالح ، وتعارض المآرب والغايات ، وفى نطاق كل أمة من هذه الأمم ، وداخل حدودها ، تسود معايير راقية من العادات يعنو لها الأفراد ويحرصون عليها ، وعليهم أن يستمسكوا بها ، ويعتصموا بحبلها إذا تطلعوا إلى المشاركة فى امتيازات المجتمع ، وهذه الفرائض والسنن - وهى فى الغالب عنيفة صارمة - تضطر الفرد إلى أن يبذل مجهوداً كبيراً فى ضبط النفس وكبح الغرائز والإمساك عن تلبية مطالبها وإشباع نهمتها ، وهى على وجه التخصيص تحظر عليه الانتفاع بالفوائد العظيمة التى تعود عليه من ممارسة الكذب واللجوء إلى الغش والخداع فى المنافسة القائمة بينه وبين مواطنيه ، وتعتبر الدول المتحضرة هذه المعايير المقبولة أساس وجودها وهى تنذر بصارم العقاب كل من تمتد يده إليها بسوء ، بل هى تضيق ذرعاً بمن يجترئ على تناولها بالبحث أو النقد ، وكان المفروض يقتضى أن تحترم الدولة نفسها هذه المعايير ، ولا تفكر فى الخروج عليها والاستهانة بها ، وقد سلمت بأنها قوام المجتمع ، ولكن ثارت الحرب واندلع لهيبها ، تلك الحرب التى رفضنا أن نعتقد بها ، فزالت الغشاوة عن أبصارنا ، وهى إن لم تكن أكثر سفكاً

للدماء وإمعاناً فى التدمير والخراب من الحروب السالفة بسبب زيادة أسلحة الهجوم والدفاع فى الكمال والنمو ، فإنها لا تقل عنها فظاعة ونكراً وقد عبثت بأوضاع القانون الدولى الذى فرضت الدول على نفسها احترامه فى إبان السلم ، وتجاهلت حقوق الجرحى وامتيازات الخدمة الطبية ، والتفريق بين المدنيين والمحاربين ، وحقوق الملكية الفردية ، وقد وطئت فى ثورة غضبها وعرواء جنونها ما صادفته فى سبيلها ، حتى كأن لم يبق أمل فى المستقبل للإرادة الخيرة بين الناس ، وقد قطعت كل الأواصر بين الأمم المتطاحنة إلى حد ينذر بأنها ستخلف فى النفوس من الحقد والمرارة ما يجعل تجديد الصلات واستئناف العلاقات أمراً غير ميسور ردحاً من الزمن . والأمم المتحاربة تستبيح لنفسها كل محظور ، وترتضى كل عمل من أعمال القسوة خليق بأن يلوّث سمعة الفرد ، ويلحق به العار الدائم ، وهى لا تكتفى باستعمال الخداع المباح ، بل تلجأ إلى الكذب الصراح المتعمد والغش والتدليس ، وتطالب أفراد الشعب بالخضوع التام والتضحية الكاملة ، وفى الوقت نفسه تعاملهم معاملة الأطفال القاصرين وتكتم عنهم الحقائق ، وتضن عليهم بالأخبار ، وتعرضهم للرقابة ، وتنكث العهود المبرمة بينها وبين غيرها من الدول ، وتنقض الاتفاقات والمعاهدات ، وتكشف عن رغبتها فى السلب والنهب ، وشهوتها إلى القوة والنفوذ ، وعلى الفرد أن يقر ذلك ويجيزه باسم الوطنية» .

ويسترسل فرويد قائلاً – وكأنه كان ينحى على نفسه باللائمة – «إننا نرحب بالأوهام لأنها تجنبنا الأزمات العصبية ، وتذلل لنا سبل المسرات ، فلا ينبغى أن نشكو إذا عارضتها الحقيقة فانهار بناؤها وذهبت بدداً» .

ويكفى هذا القدر الذى نقلته عن العلامة فرويد لتوضيح ما أثارته الحرب السالفة فى نفسه من خواطر وشجون وآراء وتأملات ، وقد هزت بناء أفكاره ،

وجعلته يعيد النظر فى أعطاف نظرياته ، ونقلته إلى مرحلة جديدة من مراحل التفكير ، ووثقت العلاقات بينه وبين المذهب الحيوى وقربته من آراء شبيهة بآراء ما وراء الطبيعة .

ويبدو الفرق بين هاتين المرحلتين من مراحل تفكيره فى نقده لتلميذيه « يونج » و « أدلر » ، فهو يرفض نزعة يونج الصوفية ، ويعترض على تفسيره المظاهر النفسية تفسيراً دينياً بدلاً من أن يفسر الدين من الناحية النفسية ، ويستمسك بماديته ، ويؤكد أن « غرض العلم هو أن يصل إلى التجاوب مع الحقيقة ، أى مع ما هو موجود فى خارج نفوسنا وما هو مستقل عنا ، وقد علمتنا التجربة أنه حاسم فى تحقيق رغباتنا أو مقاومتها ، وإحباط مسعانا ، وهذا التجاوب مع العالم الواقعى الخارجى هو ما نسميه الحق » .

وينكر فرويد كذلك على أدلر رأيه فى العجز عن معرفة العالم الموضوعى وإصراره على نسبية الحق ، وعطفه على الرأى القائل بأن علينا أن نحتفظ بالاعتقاد الذى يمكننا من أن نلائم بين أنفسنا وبين الواقع كما نجده ، وهو يتهم هذا الرأى بالرجعية ومسايرته للآراء التى تعمل على مقاومة العلم .

وقد نشأ فرويد فى عصر ازدهار المادية الآلية التى غلبت على أواخر القرن التاسع عشر ، وظل وفياً لها إلى ما قبل الحرب الكبرى ، وعادى فى سبيلها تلميذيه النابهين المذكورين ، ولكنه اضطر بعد ذلك إلى الانحراف عنها إلى حد ما ، واقترب من المذهب الحيوى ، والمذهب الحيوى يوافق المادية الآلية فى مقدماتها ، ولكنه يحاول بعد ذلك أن يحل مشكلاته بإضافة قوى حيوية جديدة ، وقد اقترب فرويد من هذا المذهب تحت تأثير صدمة الحرب الكبرى السالفة .

وقد تأثر فرويد بالحرب تأثر رجل كان فى الواقع مخدوعاً بانتشار المبادئ الحرة

دون أن يلقى باله إلى النزعات الاستعمارية واستفحال نقائض النظام الرأسمالى ، وقد استطاع أن يحتفظ خلالها بتوازنه ونزاهة تفكيره ، وأخذ مذهبه ينحو نحواً جديداً يتسع لتفسيره هذه الحرب المفاجئة .

ولقد بدأ فرويد تفكيره بفرض كانت تسلم به أكثر المذاهب الاجتماعية ونظريات علم الحياة ، وهو أن كل أفراد النوع الإنسانى – وهم يشتركون فى ذلك مع صور الحياة الأخرى جميعها – يميزها دافعان داخليان ، هذان الدافعان هما دافع المحافظة على الذات ، ودافع المحافظة على النوع ، ومن ثم قسم الغرائز الإنسانية إلى شعبتين رئيسيتين ، غرائز الأنانية التى تقصد إلى المحافظة على الذات ، والغرائز الجنسية التى تقصد إلى المحافظة على النوع ، ونشبت الحرب فواجهت علماء النفس حالات غريبة لم تخطر لهم ببال ، فقد شاهدوا الفرد وهو يعمل على تحطيم نفسه ، وإزهاق روحه ، ولا يترفق بها ، وتأملوا الشعوب وهى تعمل برمتها على إبادة نفسها وإهلاك حضاراتها ، وأثبتت لهم المشاهدات العديدة ، والحوادث المتلاحقة ، أن الإنسان لا يتريث فى الإقدام على الموت والإلقاء بنفسه إلى التهلكة ، وأن الشعوب لا تتردد فى خوض الحرب ، والاستهداف للإبادة والاستئصال ، فكيف تُغْلب على أمرها غريزة المحافظة على الذات وهى قوام كل شىء فى الحياة ؟

تلقاء هذه المشكلة لم يحاول فرويد أن يفسر لنفسه كيف اشتعلت الحرب ، والمقدمات التى أدت إلى قيامها واكتفى بأن يحاول أن يفهم كيف يستمال الناس إلى الحرب وقد انطلقت من عقالها وثارت ثائرتها .

وقد اعترضته فى بادئ الأمر عقبات ، فإن الغرائز تشمل دوافع الأنانية وفى الغريزة الجنسية بواعث السادية وهى الرغبة فى إيلام الغير – ولكن ذلك لا يكفى لتفسير وقوع الحرب وتعليل حدوثها ، فأخذ فرويد يتجه إلى تأكيد الجانب السيئ

مما يعتقد أنه هو الطبيعة الإنسانية فقال : «إننا قد انسقنا إلى اعتبار الطبيعة الإنسانية أحسن حالاً مما هى عليه فى الواقع ، وفى حركة التقدم الإنسانى يستحيل الكثير من الدوافع السيئة دوافع صالحة ، وتنقلب الأنانية الذاتية إلى ضرب من ضروب حب التضحية ، ولكن بعض التجارب تعكس عمل الحضارة فتحدث ارتداداً إلى الغرائز الأولى» .

ويقول فرويد بعد ذلك «إن تأثيرات الحرب هى إحدى تلك القوى التى تفضى بالإنسان إلى مثل هذا الارتداد» .

ولكن كيف تحدث الحرب ؟ يرى فرويد أن الحرب تأتى من الخارج وأنها لا تُفَسَّر فى حدود علم النفس ، وأن تبعتها تقع على كاهل الدولة ، ويخرج هنا فرويد من نطاق التفسير الفردى إلى تأمل القوى الاجتماعية المتمثلة فى الدولة .

وكان فرويد يفصل ويفرق بين الغرائز الجنسية وغرائز الأنانية والذاتية ، ولكن البحث أثبت أن الإنسان فى طفولته الباكرة تتجه فيه غريزة الحب الجنسى إلى نفسه ، وتنحصر فى ذاته ، ولا يكون هناك فارق بين الطاقة التى تستعمل فى المسائل الجنسية ، والطاقة التى تستعمل فى المحافظة على الذات بعد اجتياز هذه المرحلة ، ومرحلة الطفولة من هذه الناحية – على حد تعبير علماء التحليل النفسى – مرحلة نرجسية Narcissitic أى يحب فيها الإنسان ذاته ، وحب النفس هو التئام الذات والغرائز الجنسية وتوحدهما ، والحب الذى كان متجهاً إلى النفس يمكن أن يتجه إلى الأشياء الخارجة عنها ، ويمكن أن يرتد إلى النفس ، ويرى فرويد أنه ما دام الحب الذى يتجه إلى الأشياء مصدره حب «الأنا» فإن حب «الأنا» وحب الأشياء إذاً من طبيعة واحدة ، وعنصر واحد ، ولا داعى للتفريق بينهما ، ويستطيع الإنسان أن يلغى اصطلاح «الليبيدو» أو ما يعبر عنه بالطاقة الجنسية على وجه العموم .

وهكذا امتزجت الغرائز الجنسية وغرائز الأنانية ، وتسربت كل منهما فى الأخرى ، وأصبحتا ما يسميه فرويد «غريزة الحياة» التى تنشد اللذة وتتجنب الألم ، ولكن الكثير من المظاهر لا يتسق مع هذه النظرية ، ولا يجعلنا نؤمن بشمولها وقدرتها على تفسير كل شىء ، وكان أشد ما استرعى نظر فرويد إلى ذلك تلك الأحلام الرهيبة التى كانت تعاود الجنود ، وتتمثل لهم فيها تجاربهم القاسية فى ميدان القتال ، فقد رأى فرويد أن تفسير أمثال هذه الأحلام بأنها «تحقيق رغبات» تفسير غير مقنع .

أمثال هذه المظاهر وما يقاربها – مثل مظهر السادية أو الميل إلى إيلام النفس ومظهر المازوكية أو الميل إلى إيلام الغير – جعلت فرويد يلتمس تفسيراً آخر ويبحث عن نظرية جديدة شاملة ، وقد انتهى إلى وجود ميل داخلى فى جميع الأشياء الحية إلى استعادة حالة سابقة للوجود مناقضة للذة ، وقد تناول هذا الموضوع فى رسالته الشهيرة المسماة [1] «ما وراء نظرية اللذة» وكان للآراء التى بسطها فى هذه الرسالة تأثير كبير على اتجاهاته الفكرية .

وعند فرويد أنه ما دامت الحياة فى الماضى السحيق قد انبعثت فى المادة غير الحية بطريقة ليس من الممكن تصورها ، فتمشياً مع نظريته يرى أن غريزة مستحدثة قد وثبت معها إلى الوجود ، غرضها إلغاء الحياة والعودة إلى الحالة غير العضوية للأشياء ، وإذا استوضحنا فى هذه الغريزة الدافع إلى إبادة النفس أمكننا أن نعرف أن هذه الغريزة هى «غريزة الموت» البادية فى كل عملية حيوية .

وهناك إذاً دافعان غريزيان هامان : أحدهما يعمل على المحافظة على الذات والنوع ويسمى «غريزة الحياة» والآخر يعمل على إتلاف النفس وهدم الحياة ،

---

(١) Beyond The Pleasure Principle.

ويسمى «غريزة الموت» ، وتعاون هاتين القوتين ينتج مظهر الحياة التى يغتالها الموت بعد ذلك .

ولكن ما علاقة ذلك بالحرب ؟

غريزة الموت هى فى بادئ الأمر وقبل كل شيء مصوبة إلى النفس ولكن هذه الغريزة الحاطمة المبيدة تقاوم وتعارض غريزة المحافظة على الذات ، وتحت تأثير هذه المقاومة تنحرف عن هدفها الأصلى إلى الخارج ، وعندما يحدث ذلك تقع حوادث الاعتداء الجنسى أو السادية ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، فقد تحدث اعتداءات أخرى غير جنسية ، وهذه الاعتداءات مشتقة من نبعة غريزة الموت .

وهذا هو أساس التفسير النفسى لمسألة الحرب وما إليها من المظاهر الاجتماعية الشاذة التى يقدمها لنا فرويد ، فالفرد لا يتخذ الفرد الآخر وسيلة لإشباع شهوته فحسب ، بل يتخذه كذلك وسيلة لإشباع ميله إلى العدوان ويستغل جهده بغير مثوبة ، وينتهب ما يملكه ، ويستذله وينكل به ، ويسفك دمه ، وكذلك تفعل الأمم .

ويعزو فرويد الحرب السالفة إلى تقدم الأسلحة «لأن الناس على الدوام تضع القوى الجديدة المكتسبة تحت تصرف ميلهم إلى الاعتداء» وقد اعتقد فرويد أنه بذلك قد حلّ مشكلة الحرب ورفع النقاب عن وجهها .

ويحاول فرويد أن يوضح أنه قد انساق إلى تصور غريزة الموت بدوافع فكرية يسندها علم الحياة فيقول : «واستمساكى بفرض وجود غريزة الاعتداء والإبادة فى الإنسان ليس سببه ما تعلمته من التاريخ أو تجربتى للحياة ، وإنما سببه اعتبارات عامة انسقت إليها عندما حاولت أن أقدر أهمية مظهر السادية والمازوكية» .

ولكن مع ذلك فإن هذا المظهر ظل ماثلاً حيال عينيه سنوات طويلة دون أن يوحى إليه هذا الحل ويتأدى به إلى هذه النتيجة .

والحقيقة أن تكوين فكرة «غريزة الموت» واعتبارها علامة من علامات الطبيعة الإنسانية ، وخليقة من خلائق الإنسان ، من الإنتاجات العقلية التى أثارتها ظروف العالم الاقتصادية وأزماته المستحكمة فى رأس فرويد ، ومعناها أن فرويد انتقل من فكرة امتناع الحرب – أوعلى الأقل إغفالها وإسقاطها من حسابه – إلى فكرة أن الحرب ضربة لازم ، ولا سبيل إلى علاجها وتجنبها .

وقد ألقت هذه الفكرة المزعجة ظلاً من الكآبة على فرويد ، والمجتمع الذى يقوم على أساس غريزة مثل غريزة الموت هو بلا ريب مجتمع غير مستقر الدعائم ، وقد يوفق المجتمع فى كبت ميلنا الداخلى الصميم إلى التعدى على الغير ، وهو الواجب إذا كان لابد من بقاء المجتمع ، ولكن غريزة الاعتداء سترتد فى هذه الحالة إلى صميم النفس وحمى السريرة ، وتزيد شعورنا بالجريمة إلى حد لا يطاق ولا يمكن الصبر عليه ، فالمجتمع إذاً بين نارين عظيمتين وخطرين هائلين ، خطر كبت الميل إلى الاعتداء وتقوية الشعور بالخطيئة ، وخطر انطلاق غريزة الاعتداء والتخريب ، وهو موقف محير حقًّا ، لأن الناس لكى لا يشتد شعورهم بالخطيئة يلزم أن يكره بعضهم بعضاً ، وينكلوا بغيرهم من الناس ، ويذيقوه ألوان العذاب ، ويفتنّوا فى ذلك تبعاً لارتقاء أسلحة الحرب ، وتقدم وسائل التدمير والتخريب .

ولكن هذه الغريزة النزاعة إلى الاعتداء ، والهادمة للحضارة والتى تهدد النوع الإنسانى بالإبادة والهلاك ألا يمكن أن يتقى شرها وتوجّه إلى شىء آخر لتتلهى به وتدفع عن العالم شرغوائلها ؟

هنا يلوذ فرويد بحيدته العلمية ، ولا يقدم لنا حلاً ، ولا ينصح لنا بعلاج ،

ولكن إذا سلمنا مع فرويد بوجود هذه الغريزة – ولم نقبلها على أنها أسطورة من الأساطير – فهل من المتعذر أن نظن أن هناك طرائق للتسامى بهذه الغريزة ، وتحويلها إلى اتجاهات نافعة ومجهودات غير محطمة ، أو إيجاد أهداف يصرف إليها الإنسان ميله إلى العدوان والإيذاء ؟

ومن المحتمل أن تكون غريزة الموت التى أحزنت فرويد وقراءه مجرد استنتاج انتهى إليه فرويد تحت تأثير مراقبة سلوك الإنسان فى ظروف اجتماعية شاذة متحرجة ، تقتضى التعديل والتبديل ، مثل الظروف التى يعانيها العالم فى المرحلة الراهنة من مراحل الحضارة ، وهذا السلوك مرتبط بالإطار الاجتماعى الذى وجد الإنسان نفسه فى داخله ، وقد لا يكون من الصواب أن نستخلص من ذلك أن هذه هى طبيعة الإنسان فى كل العصور وخليقته الخالدة التى لا تتغير.

ودوافع الإنسان ورغباته وبواعثه تتلون بلون بيئته ، وتتأثر بالعوامل الاجتماعية السائدة ، والأمر يقتضى أن ننظر إلى الغرائز والحركات والدوافع والمحرضات فى ضوء النظام الاجتماعى الغالب ، وفى ظلال العلاقات الاجتماعية المسيطرة ، وطالما أكّدت الحياة نفسها وقاومت القوى المحطمة للحضارة المبيدة للنوع البشرى ، وتغيير الوسط الاجتماعى أو تحسين العلاقات الإنسانية جدير بأن يطامن النزعات الشريرة ، ويصلح الكثير من العيوب ، وإذا لم نكن من الآملين فى مستقبل الإنسانية فما أخلقنا أن لا نكون من المتعصبين فى الاستمساك بالأفكار السيئة عن طبيعة الإنسان والتوائه وفساد غرائزه ، وهذا العصر بجميع ما ينطوى عليه من حوادث وأفكار لم يخرج عن كونه طوراً من أطوار المجتمع المتقلب ، ودوراً من أدوار الحضارة وصفحة من صفحات التاريخ .

فرويد والموت

الموت مشكلة قديمة ممتنعة الحل ، ولغز دائم يضل فى متاهاته الفكر ، وقد جلّ شأنه ، وعز علاجه ، وصدق فيه قول المتنبى معزياً سيف الدولة :

وقد فارق الناس الأحبة قبلنا   وأعيا دواء الموت كل طبيب

ولكن هذا الموت القوى الغلاب لم يستطع أن يستأثر بالتفكير الإنسانى ، ويستحوذ على المشاعر البشرية بصفة مباشرة ، ولم يكن على الدوام من المسائل المحببة إلى الفن ، القريبة من الشعر ، العزيزة على الفلسفة ، وتتفاوت العناية به بتفاوت طبائع العصور ، واختلاف الحوادث ، فنى أيام الحروب وتفشى الأوبئة والأمراض ، تتعلق به الظنون ، ويتجه إليه التفكير. وقد تصوَّر الإنسان الموت تارة كالحاصد الذى لا يلين ولا يرحم ، يحصد بمنجلة الأرواح ، ويزهق النفوس . وطوراً تمثله باب الخلود ، وجسر الانتقال إلى عالم أسمى وأصفى من عالمنا الأرضى الزائل . ووصفوه مرة بالعدل ، وأخرى بالظلم . وأبوتمام يقول :

متى ترع هذا الموت عيناً بصيرة   تجد عادلاً منه شبيهاً بظالم

وكان جيتى يرى الموت حيلة تلجأ إليه الطبيعة لتستكثر من الحياة وتزداد نضارة . وكان يعتقد اعتقاداً عميقاً أن لا شىء فى الحياة يصير إلى بلى ونفاد ، وأن عقولنا باقية خالدة ، وأنها كالشمس تغرب حيال ناظرنا ولكنها فى الواقع تظل تشع ضوءاً بلا انقطاع .

وكان القرن التاسع عشر يؤمن بفكرة التقدم ، ويقبل فكرة جيتي بشيء من التعديل . ولكن جاءت الحرب الكبرى ، فهزت هذه العقيدة ونالت منها ، وأخذت حقائق الحياة المرة القاسية ترفع رأسها الحزين ، وتبسم ابتسامتها الساخرة ، ويبدا الموت من جديد فى صورة مشكلة عميقة تسترعى النظر ، وتطالعنا من كل النواحي . وأخذ الأدب يعالجها والفلسفة تدور حولها . والموت فى الأدب الغربى الحديث مشكلة حقة لها مكانتها . وقد جرى بعض الروائيين البارزين فى علاجه على نمط التفكير الاقتصادى الغالب على هذا العصر ، ففرّق بين موت الفقير وموت الغنى . فالفقير الصعلوك يستسلم للموت ولا يتقدم بطلبات ، ولكن الغنى – الرأسمالى – يجاهد ويقاوم لأنه يخشى أن يفقد ما يملكه ، ويتشبث باسمه المحترم ، ومكانته السامية ، ويحرص على رصيده فى المصارف ، وما تغله عليه ضياعه الواسعة وأملاكه الكثيرة . وقد وصف الكاتب الألمانى البارع فرانز ورفل Franz Werfel فى أقصوصته « موت الفقير » وفاة رجل من سكان فينا كان يعمل وكيلاً لأحد المحلات التجارية ، وأصيب بذات الرئة ، وعلقته حبال الموت ، ولكنه ظل يجاهد ويناضل لتأخير موته بضعة أيام حتى يتم الخامسة والستين ، ويحصل لأسرته على مزايا التأمين المستحق فى هذا التاريخ . وكانت بوادر أفكاره وعوابر أحلامه ، وهواجسه الأخيرة تنم جميعها على الصراع العنيف القائم فى عقله الباطن بين التحلل الطبيعى الذى أخذ يدب فى جسمه ويستنزف حيويته ، وغريزة المحافظة على أسرته ، وضمان مستقبل أولاده . وكانت تمر قبالة عينيه الداخليتين حوادث حياته البارزة شوهاء مهوشة ، ولكنها على ما بها من اضطراب جلية الرمز ويتراءى له رؤساؤه السابقون مثل كاهن كنيسته ، ومدير الشركة التى كان يعمل بها ، وقائد فرقته ، ويأمرونه بالخضوع لمشيئتهم ، والاستسلام لطلب « الذات الأسمى » ولكنه يظل يجاهد حتى

يصل إلى بر السلام ، وبر السلام هنا هو انتفاء غائلة الفقر وذلك بحلول ميعاد دفع التأمين . وقد جرى الإنسان أشواطاً بعيدة ، وبذل جهوداً ضخمة ليؤكد خلوده ، ويضمن بقاءه ولكن هذا الجهد المبذول لم تعززه حجة واضحة ، وإنما أيدته رغبة حافزة ترمى إلى درء الشكوك ، وانتزاع الإيمان . وقد دلت هذه الرغبة المستمكنة على شدة حرص الإنسان على تبرير هذا المعتقد العزيز ، وتسويغ هذا الأمل الغالى . وليس عندنا دليل متماسك الأجزاء حاسم الإثبات على خلود النفس ، ولا تجربة معهودة ، وإنما اعتمادنا فى الاستمساك بهذه العقيدة على قيمتها العملية من ناحية ، وعلى جذورها العاطفية الواغلة فى أعماق الطبيعة الإنسانية من ناحية أخرى . والاعتقاد بخلود النفس قد تخذله البراهين المنطقية ، وتعوزه الحجج الرياضية ، ولكن له من شدة تشبثنا به ، وعمق حاجتنا إليه ما يجعل لوجوده قيمة .

ولكن ما هو خلود النفس هذا ؟ يرى بعض المفكرين أن معنى خلود النفس هو امتداد تاريخ الفرد الإنسانى إلى ما بعد هذا الحادث الخطير المسمى « الموت » ولكن هل الخير للإنسان أن تنتهى حياته بتلك الخاتمة وتقف عند هذا الحد ، أو الخير له أن تكون هذه الحادثة مجرد انتقال إلى مرحلة جديدة من مراحل الوجود يظل فيها الفرد محتفظاً بذاتيته ، وتستطيل مجهوداته ، ويتسع نطاق أعماله ؟

وقد رأى فريق من الناس أن الاعتقاد بخلود النفس يحرم الفرد فرصة لقاء الموت بشجاعة ونبل ، وإذا كان الموت محض انتقال من حياة إلى حياة أخرى فما مصير البطولة والتضحية والشرف ؟ وأرجح أن المتنبى كان يرمى إلى ذلك فى قوله عن الدنيا :

ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

ولكن الحقيقة أن مسألة خلود النفس فى حاجة إلى البرهان العقلى ، وسيظل الموت خسارة ظاهرة ، ونكبة مرهوبة ، وسيظل الناس يخشون لقاءه .

والاعتقاد بالحياة المقبلة قد يلطف الموت ويهون وقعه ، ولكنه لا يقضى على فزعنا منه ، ولا يروضنا على قبوله والترحيب به ، وقد يمنحنا الأمل ، ولكنه مع ذلك يترك متسعاً لإظهار التجلد والعزم والشجاعة والنبل .

وقد أخذت الحرب الكبرى السالفة فرويد وغيره من الكتاب على غرة وأرغمته على التفكير فى مشكلة الحرب ، ومشكلة الحرب فى دورها اضطرته إلى تناول معضلة الموت ، ولغز البقاء والخلود ، وفرويد مفكر صارم التفكير صلب المعاجم ، لا يترفق ولا يتجمل ، وإنما ينصلت فى طريقه ، ويمضى قدماً إلى غايته ، وهو من المفكرين الذين تعود الناس أن يسموهم هادمى الأصنام ومبددى الأوهام ، وقد لقيت آراؤه معارضة شديدة ، ومقاومة عنيفة من الخصوم والأصدقاء لاعتقادهم أن نظرياته واتجاهاته وتحليلاته تهز أساس الدولة ، وتنقض بناء الأخلاق ، وتراخى روابط الأسرة ، وتفسد الدين والوطنية ، ولكنه جعل ذلك كله دبر أذنه وتحت قدمه ، لأن رسالة الفكر فى عرفه ليست تغذية الأوهام ، وتعهد الأحلام ، وظل يعمل بعزيمة لا تكل ، وصبر لا ينفد ، ويرى زفايج – وهو أحد المعجبين به القادرين لعبقريته – أن فرويد لم يجعل الدنيا أوفر جمالا وإنما أعان الإنسان على أن يفهم نفسه .

قال فرويد فى رسالته عن الموت التى وضعها فى سنة ١٩١٥ «لقد كنا بطبيعة الحال على أتم استعداد للتسليم بأن الموت نتيجة الحياة المحتومة ، وأن كل إنسان مدين للطبيعة ، وعليه أن ينتظر ذلك اليوم الذى توفى فيه ديونه ، ويغلق فيه رهنه ، وباختصار إن الموت طبيعى ولا مفر منه ، ولا سبيل إلى تجنبه ودفعه ، ولكن الواقع أننا كنا نتصرف كما لو كان الأمر على نقيض ذلك ، ولقد كنا نظهر

رغبة واضحة فى نبذ الموت ، وإقصاء خياله عن الحياة ، واجتواء التفكير فيه ، ولم يمر ببالنا أننا سنموت يوماً ما ، بل لم نستطع تصور ذلك وتستطيع مدرسة التحليل النفسى أن تجترئ على القول بأن كل فرد لا يعتقد فى أعماق نفسه ومستكنات ضميره بأنه سيموت يوماً ما ، والرجل المتحضر يتحاشى الإشارة إلى موت الآخرين فى حضرتهم ، بل هو لا يستطيع أن يخطر بباله فكرة موت غيره دون أن يبدو لنفسه فى مظهر المتحجر القلب الدغل السريرة ، إلا إذا كان طبيباً ، أو مدرهاً تحتم عليه مهنته أن يتناول موت الغير من الناحية العملية ، ويعمل الإنسان على تجنب الإشارة إلى موت الغير على وجه الخصوص إذا كان فى ذلك الموت ما يكسبه حرية أو ينيله مركزاً ويحقق له غاية .

وعندما يمضى الموت بأحد نتأثر تأثراً عميقاً كأننا قد أصبنا بما يعكس آمالنا ، ويخل بحسابنا ، ومن عادتنا أن ننظر إلى السبب العرضى العابر للموت ، فنعزوه إلى حادثة ، أو ننسبه إلى المرض أو العدوى أو تقدم السن ، وتصرفنا هذا ينم على محاولتنا تعديل معنى الموت ، ونقله من ضرورة قاهرة إلى حادثة عرضية ، ونقف من الشخص الميت موقفاً خاصاً منطوياً على الشعور بالإعجاب والإحساس بأنه قد قام بعمل شاق ، وننسى أخطاءه ، ونغض الطرف عن عيوبه ، ونمسك عن نقدنا له ، ونعتقد أنه من الخير أن نستبقى ما يحسن إلى ذكراه ، وهذه الرعاية لحرمة الميت أغلى فى نظرنا وأعز علينا من الحق نفسه .

وهذا الموقف التقليدى حيال الموت بين المتحضرين يبدو فى أسمى نواحيه فى ذلك الحزن الغامر الشديد ، والهم المقعد المقيم الذى يلم بنا عندما يتخطف الموت شخصاً أثيراً فى نفوسنا ، جد قريب منا ، مثل الابن أو الزوجة أو الشقيق أو الصديق ، وهنا يخيل إلينا أننا نوارى معه فى القبر سعادتنا ، وندفن آمالنا ، ولا نجد ما يملأ الفراغ الذى تركه فى نفوسنا ، وتتسلب الدنيا فى نظرنا من جمالها ،

وتغيض بشاشتها وتصوح زهرتها ، ولهذا الموقف من الموت تأثير شديد على حياتنا ، فإن مثل هذا الحزن الذى لا نقوى على حمله يجعلنا نحب السلامة والأمن لمن تربطنا بهم الروابط القوية ، ونناى بهم عن ركوب الأخطار وتجشم الصعاب ، والنتيجة المحتومة لذلك هى إقفار الحياة ، واضطرارنا إلى التماس المتعة فى عالم الخيال والأدب والمسرح ، ففى هذا العالم الفسيح الرحاب ، المتسع الميادين ، نحيا مع قوم يعرفون كيف يموتون ، ونستطيع أن نوثق علاقتنا مع الموت ، لأننا نرى أنفسنا من وراء التقلبات ، ونوازل النكبات ، وعواثر الحظوظ ، محتفظين بوجودنا .

ولكن تجىء الحرب وتكتسح ذلك كله ، وتقلب تفكيرنا رأساً على عقب ، ففى الحرب لا نستطيع إنكار الموت ، ولا مفر لنا من مواجهته والاعتراف بحقيقته ، فالناس فى الحرب لا يردون حياض الموت فرادى ، وإنما يردونها زرافات ، وربما يموت فى اليوم عشرات الألوف .

فى هذا الموقف لا نستطيع أن ننظر إلى الموت نظرتنا السابقة . ومن أسباب حيرتنا وما أصابنا من تبلبل واضطراب أننا أصبحنا لا نستطيع الاحتفاظ بنظرتنا السالفة للموت ، ولم نعرف بعد السبيل إلى أن نقف منه موقفاً آخر يلائم الأحوال الراهنة ، وربما ينفعنا ويجدى علينا ويهدينا سواء السبيل أن نوجه هنا بحثنا النفسى إلى ناحيتين لهما علاقة أكيدة بالموت ، الأولى يمكن أن نعزوها إلى القوم البدائيين ، والثانية كامنة فى طوية كل منا ، ولا يكاد يسطع عليها ضوء الوعى ، وقد وقف الإنسان البدائى من الموت موقفاً يسترعى النظر ، ولم يكن هذا الموقف مطرداً متساوقاً ، وإنما كان متناقضاً للغاية ، فهو من ناحية قد أخذ الموت مأخذ الجد ، واعتده نهاية للحياة ، ولكنه من ناحية أخرى أنكر الموت وأحاله لا شىء ، ومصدر هذا التناقض هو أن موقفه من موت الأغيار والغرباء عنه

وأعدائه كان يختلف عن موقفه من موت أقاربه وأحبابه ، فلا بأس عنده فى موت الغير لأن معناه هلاك مخلوق يمقته ، وهو لا يتردد فى تهيئة أسباب هذا الهلاك ، ولكنه - مثلنا اليوم - لم يستطع أن يتصور هلاك نفسه وانطفاء شعلة حياته ، ولكن كانت هناك حالة كان له فيها موقفان متعارضان ، وقد أثرت هذه الحالة فى تفكيره تأثيراً بعيد المدى عظيم الأثر ، وكانت تحدث هذه الحالة عندما يرى الرجل البدائى أحد أقاربه جثة هامدة ، فقد كان ذلك يهيج لواعجه ، ويرغمه وهو يتنزى من الألم على أن يعتقد أن الموت قد يستلب حياته كما انتهت حياة أقاربه وأصدقائه ، وهو اعتقاد تأباه نفسه وتعافه وتثور به وتأبى الاستسلام له ، وحقيقة أنه قد فقد فى موت أعزائه وأصفيائه جزءاً من نفسه ، وانهار ركن من حياته ، ولكن من ناحية أخرى كان فى كل فرد من هؤلاء الأعزاء جانب آخر غريب عنه ومنافر له ، وكل واحد منهم كان إلى حد ما عدواً فى ثياب صديق ، فالحزن على فقده يتضمن عنصراً من عناصر السرور ، وعاملاً من عوامل الشماتة - ويستنجد فرويد هنا بقانون تناقض العواطف الذى فطن له ، واستوفى بحثه فى كتابه القيم عن الطوطمية والمحرمات (**Totem&Taboo**) ، ويقضى هذا القانون باجتماع الحب والكراهة لشخص بعينه فى وقت واحد - وقد كان لقانون تناقض العواطف مدى واسع فى العصور البدائية ، فالموتى المحبوبون كانوا فى نظر ذلك الإنسان البدائى أعداء وغرباء إلى حد ما .

ولقد أعلن الفلاسفة أن الموت هو الذى كشف للرجل البدائى عن تلك الأحجية العقلية التى أرغمته على التفكير ، وفى اعتقادى أن الفلاسفة يفكرون هنا تفكيراً فلسفياً محضاً ، ولا يلقون بالهم إلى الدوافع البدائية التى كيفت تفكير الإنسان ، والرجل البدائى يطرب لمصرع خصمه دون أن يفكر فى غريبة الموت ولغز الحياة ، وإنما الذى أثار تفكيره واستجاش عواطفه هو موت الشخص

المحبوب ، والذى هو فى نفس الوقت غريب ومكروه ، والإنسان فى هذا الموقف لا يستطيع أن ينفى شبح الموت ، فقد لمس قربه وتجرع مرارته فى حزنه على من مات من أحبابه ، ولكنه مع ذلك لم يعترف بالموت كل الاعتراف ، لأنه لا يستطيع أن يتصور نفسه ميتاً ، ولذا أوجد حلاً وسطاً ، فهو من ناحية قد سلّم بفكرة الموت ، واعتقد أن هذا الموت قد يمضى بغيره ولكنه جردّ الموت من معنى الفناء والهلاك والإبادة ، وفى أثناء تأمله لجثة من أحبه ولم يهن عليه فقده اخترع الأرواح ، وشدة شعوره بالجريمة من جراء هذا الطرب الممتزج بالحزن عند مصرع الأعزاء جعل هذه الأرواح الحديثة الميلاد شريرة غادرة ، وخلق منها الشياطين المرهوبة ، والأشباح الخبيثة المؤذية ، وما أحدثه الموت من تغيرات أوحى إليه فكره تقسيم الفرد إلى جسم وروح ، وفى بادئ الأمر إلى جسم وأرواح كثيرة ، وصارت ذكرى الميت الباقية فى الذاكرة أساساً لفرض حالات أخرى من الوجود ، ومهدت للإنسان سبيل تصور بقاء الحياة بعد الموت الظاهرى ، ثم جاءت الأديان وتوسعت فى هذا الرأى ، بل ذهبت إلى أن الحياة الأخرى خير وأبقى من الحياة الحالية ، وأن الحياة الحالية هى مجرد إعداد وتأهب للحياة التالية ، وكان مما يلائم ذلك أن تمد جذور الحياة إلى الماضى السحيق ، وأن يتصور الإنسان ضروباً شتى من الوجود سابقة لوجوده الحاضر ، وهذا هو أصل الاعتقاد بتناسخ الأرواح وتقمصها ، وكل هذه محاولات لتجريد الموت من معناه الأصلى من حيث هو خاتمة الحياة ، فإنكار الموت جاء مبكراً فى تاريخ الإنسان .

وبأزاء جثة المحبوب لم تولد فكرة «الروح» و«الاعتقاد بالخلود» و«شعور الإنسان العميق بالخطيئة» فحسب وإنما أيضاً وجد أول اتجاه إلى خلق القانون الأخلاقى والشرائع الأدبية ؛ وأول أمر أصدره الضمير المستيقظ من سباته هو

«لا تقتل» ، وقد نشأ ذلك نتيجة لرد فعل شعورنا الخفى بالسرور الذى كان يختبئ خلف حزننا على موت الأعزاء المحبوبين ، وقد قوى هذا الشعور وبسط ظلاله على الغرباء المكروهين ، ثم ازداد قوة وامتد رواقه حتى شمل الأعداء .

ولنترك الآن الرجل البدائى ونتحول إلى تأمل أثر العقل الباطن فى حياتنا الفكرية ، فما هو موقف عقلنا الباطن حيال مشكلة الموت ؟ فى هذه المسألة كما فى غيرها من أمهات المسائل لا يزال الإنسان البدائى مقيماً فى نفوسنا ، وعقلنا الباطن لم يتغير موقفه ، فهو لا يزال على إصراره فى رفض الاعتقاد بإمكان موتنا المطلق ، فنحن فى نظرة خالدون ، ويتبع ذلك أن غرائزنا جميعها لا تؤمن بالموت – ولم يكن فرويد قد فرض بعد وجود غريزة الموت التى سبق أن تحدثت عنها فى المقال السابق عن فرويد والحرب – وربما كان ذلك هو السر فيما يقوم به الإنسان من أعمال المخاطرة والإقدام على المكروه . ومن الناس من يفسر البطولة بأنها قائمة على اعتقادنا الصميم بأن حياتنا الشخصية الفانية أقل قيمة من مثلنا العليا المجردة ، ولكنى أعتقد فى الأغلب أن هذه البطولة الغريزية لا تعرف مثل هذا الدافع الذى لا يقوى على مغالبة التردد والإتيان بأعمال البطولة المتمشية مع عقلنا الباطن .

ونحن من ناحية أخرى – مثل الرجل البدائى – نعترف بموت الغرباء عنا وموت أعدائنا ، وعقلنا الباطن يحاول أن يزيل من طريقه كل من يعترض سبيلنا ، فإذا حكم علينا بما فى عقلنا الباطن من رغبات خفية ونيات مبيتة ، فإننا جميعاً مثل الإنسان البدائى عصبة من المجرمين السفاكين ، ولحسن الحظ فإن هذه الرغبات التى تتمثل فى نفوسنا ليس لها قوة رغبات الإنسان البدائى وعرام أهوائه ، وإلا لهلك الناس وفيهم أحكم الحكماء وأجمل النساء» .

ويشعر هنا فرويد بأنه يذهب مذاهب غريبة ، وربما يدّعى ادعاءات

عريضة غير مألوفة فيسترسل قائلاً «وسواد الناس لا يثقون بالتحليل النفسى لأمثال هذه التأكيدات ، وهم يرفضونها ويعدونها افتراءات لا دليل عليها ولا سند لها ، والذى حدث للرجل البدائى يحدث نظيره فى عقلنا الباطن حيال الموت ، وذلك عند فقد أحد أحبابنا والمقربين منا ، ففى هذه الحالة يتراءى لنا الموت من ناحية مبيداً للحياة عاصفاً بها قاضياً عليها ، ومن ناحية أخرى يبدو لنا عاجزاً عن الإنتصار عليها ، مغلوباً على أمره ، منهزماً مدحوراً ، وهؤلاء الأعزاء الذين يطويهم الموت هم من ناحية أخرى أعداء لنا وغرباء عنا .

وعامة الناس يستنكرون هذه المشاعر ، ويستفظعون هذه الآراء ، ويخالون مثل هذا الإنكار أو الاستفظاع كافياً لنقض حقيقتها ، ويتخذونه وسيلة للنيل من التحليل النفسى والزراية به ، وهذا فى اعتقادى مذهب خاطئ ، فليس المقصود هنا هو الانتقاض لقدر الحب ، وحقيقة أن عقولنا لا تألف هذا الجمع بين الحب والبغض ، ولكن الطبيعة تحاول باستعمال هذين التوأمين المتناقضين أن تجعل الحب يقظاً مستوفزاً ، متنبهاً للعدو الرابض له ، المختبيء خلفه ، ويمكن أن أقول بأننا مدينون بخير ما فى حياتنا الوجدانية من أزاهير جميلة لرد الفعل الذى يقوم بنفوسنا لمناهضة دافع العداء الذى نلمحه فى طويات قلوبنا ودخائل نفوسنا ، وخلاصة القول إن فكرة موتنا وهلاكنا لا يمكن أن ترتقى إلى شعاب عقلنا الباطن ، وأن هذا العقل الباطن لا يزال ينزع إلى قتل كل غريب عنا ، بعيد عن نفوسنا ، وأنه لا يزال موزع الميول ، متناقض العواطف تلقاء من نحبهم ونعزهم .

ومن السهل الهين أن ترى تأثير صدمة الحرب فى مثل هذه العواطف المتناقضة ، فالحرب تجردنا من زوائد الحضارة وإضافاتها وحواشيها المصطنعة ، وتكشف عن الإنسان البدائى الكامن فى نفوسنا ، وتضطرنا إلى أن نصير أبطالاً

لا نصدق بأننا سنموت ، وتجعلنا تنظر إلى الغير نظرنا إلى العدو الذى نرجو موته ونريد قتله ، وما دامت العلاقة بين الأمم كما هى فالحرب باقية» .

ويرى فرويد أنه من الخير أن نفسح فى نفوسنا مكاناً لفكرة الموت كما كانت تتراءى للإنسان البدائى وليس هذا بالعمل المجيد الباهر ، وإنما هو ارتداد إلى الوراء ونكسة تصيب الإنسان ، ولكن فرويد يرى أن هذه المحاولة تعيننا على احتمال الحياة ، واحتمال الحياة هو أول واجبات الأحياء ، ولا قيمة للأوهام إذا حالت بيننا وبين ذلك ، ومن أراد أن يستديم الحياة فليستعد للموت ، وهذه هى النصيحة الغالية والوصية القيمة التى يقدمها لنا كبير علماء النفس المحدثين ، وأحد شيوخ مفكرى العصر وأعلام الثقافة ، وفى الحق أنها نصيحة محزنة ، ووصية غير سارة ، ترينا عمق التشاؤم الغالب على تفكير هذا العصر ، وتغرينا بأن نردد قول المتنبى :

أتى الزمان بنوه فى شبيبته   فسرَّهم وأتيناه على الهرم

الاعتراف والمعترفون

يجد كل إنسان راحة مستطابة ، ويستشعر متعة خالصة إذا تحدث عما يغشى نفسه من إحساسات ملحة ، وما يعالج من خواطر شتى ، ووصف ما يضطرب فى خاطره من أفكار ، وما يهجس به من هواجس ، وكأن النفس تنفى بذلك همومها ، وتتخفف من أعبائها أوكأنها تحاول أن تقذف حممها وتبعثر شجونها لتفسح المكان وتخلى الطريق لتأثرات لا عهد له بها ، وتجارب جديدة ، وتيارات طريفة ، ولكن كثيراً ما يحدث ألا تجد إحدى النفوس سبيلاً إلى التخلص مما آدها ، ولا تملك الإعراب عما خالجها والإفضاء بما فى نفسها ، وأمثال هؤلاء الناس يستهدفون للأمراض العصبية والعلل النفسية ، وأعراض هذه الأمراض البارزة هى إعراضهم عن قبول التأثرات الجديدة ، ومحاولتهم الاكتفاء باجترار أحاسيسهم المؤلمة والتغذى بما يعتادهم من خواطر وأوهام ، وكل علة مستعصية مزمنة من علل النفس مردها فى النهاية إلى سر من الأسرار غائر فى أعماق الضمير ، متغلغل فى ثنايا الفؤاد ، مغيب فى ظلام اللا وعى ، وأبو تمام يقول :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق   لديباجتيه فاغترب تتجدد

وكذلك طول إقامة الأسرار فى أغوار النفس مخلق لديباجتيها ، هادم لأعصابها ، مضيع لسعادتها وأمنها ، جلوب إليها الفشل من معادنه ، بل قد تتمخض مثل هذه الحياة عن فاجعة مؤثرة أو مأساة مروعة ، وفى إفضاء النفس

بما يكظها و يملأ شعابها لون من التجديد وضرب من التهوية والتصفية ، وابتعاث للنشاط وتحريك للشهية ، ولعل أكبر عزاء للشعراء وللكتاب وسائر الفنانين هو أنهم يستطيعون إلى حد كبير أن يرسلوا أنفسهم على سجيتها ، ويرخوا لها العنان فى التحدث عن آلامهم وآمالهم ، والبوح بما يجول فى خواطرهم ويطوف بأخلادهم ، وتصوير ما يلم بهم من أحاسيس ، وما يعرض لهم من أزمات ، فترتاح بذلك نفوسهم ، وتخف وطأة أحزانهم ، وتنجلى همومهم ، وهم يجدون صعوبة ويلقون عنتاً فى محاولة رسم عواطفهم ، ووصف وجداناتهم وصفاً دقيقاً صادقاً ، ولكن كلما راضوا تلك الصعوبة ، واستعلوا على ما يتصداهم من الحوائل والعقبات استروحت نفوسهم وهدأت خواطرهم ، وليس أشقى من النفس المغلقة المنطوية على أحزانها ، العاكفة على همومها ، والتى لا تجد متنفساً للشكوى ولا منفذاً للإعتراف .

وفى حياة الأطفال الصغار تبدو العوامل الخفية المعقدة التى تعمل وتؤثر فى حياة الرجال الكبار واضحة جلية ، ونفوس الأطفال مرآة مجلوة نستطيع أن نتبين فيها الكثير من ملامح الإنسانية وصفاتها ، والأطفال لا يتقنون المداراة ولم ترغمهم الحياة بعد على مصانعة الظروف وإخفاء الأحاسيس ، فهم لا يستطيعون أن يحتفظوا بسر ولا أن يكتموا أمراً ، وليس فى طوقهم أن يلتزموا الصمت ، ويتصنعوا الوقار والاتزان ، فإذا جهلوا شيئاً سألوا عنه ، واستفسروا حقيقته ، ولم يتعمدوا إخفاء جهلهم وادعاء العلم والاستئثار بذخائر المعرفة كأن المطلوب من كل فرد أن يكون موسوعة حافلة متحركة . ويعرض الأطفال عن هذا الضرب من النفاق ، واللون المضحك من الادعاء ، وهم كذلك أحكم من أن يحتفظوا بسر يرهق أعصابهم ، وينغص عليهم متعة تجديد الإحساس ، والترفيه عن النفس ، أما الرجال فإنهم يأبون إلا أن يحملوا الأسرار المضنية التى

تحطم الأعصاب ، وتكرب النفس ، والسر عند الأطفال عبء لا يصبر عليه ، ولا يمكن احتماله ، فهم لا يستودعون سراً إلا أذاعوه وضعف احتمالهم عن الاحتفاظ به ، وهذا هو سر مرحهم الدائم وبشاشتهم المتصلة ، وصفاء نفوسهم ، ونضارة حياتهم .

والواقع أن الكبار مثل الأطفال يضنيهم احتمال الأسرار ويزعجهم ويقض مضاجعهم ، ويثقل على نفوسهم ، ويسرهم أن يتخلصوا منه على أى وجه من الوجوه وبأية صورة من الصور ، فإذا لم يبوحوا بالسر مباشرة ولم يقولوه صراحة بلا مواربة ولا لف ولا دوران ، التمسوا لذلك أسلوباً خفياً ، وطريقاً معوجاً ، وتعبيراً رمزياً ، وركنوا إلى الإيماء والإشارة ، والتلويح والكناية ، مما لا تخفى دلالته على البصير بدخائل النفس ، والعالم بما تخفى الضمائر ، وقد روى أحد علماء النفس أن امرأة ارتكبت الخطيئة وعادت بعد ذلك على نفسها باللائمة وبكتها ضميرها ، واشتد ندمها ، ولكنها لم تستطع الإعتراف بجرمها ، فكانت لاتنى تغسل يديها فى مناسبة وغير مناسبة ، ولقد استولت عليها فكرة أنها قذرة ملوثة ، وأنها غير طاهرة الذيل ، فهدتها فطرتها إلى أسلوب من الإعتراف الرمزى غير المباشر التماساً لراحة النفس وتهدئة الضمير ، ولكنه أسلوب لا يفهمه إلا الراسخون فى العلم ، وكانت هذه السيدة عند ما يوجه إليها السؤال عن سبب غسل يديها تقول « لأن يدى ملوثتان » ومثل هذا الإعتراف الرمزى كثير الحدوث متنوع الرموز ، وهو نوع من المساومة وعقد الهدنة بين الدوافع النفسية المتعادية ، والخواطر المحتربة ، ولا يعادل بطبيعة الحال إطلاق النفس على فطرتها ، والتخلص المباشر من سيطرة الأسرار ، وأعباء الإحساسات الباطنة المستخفية .

ويقول الذين عاشوا طويلاً بين جدران السجون : إن شر ما كانوا يلقونه فى السجن هو عدم استطاعتهم نفض أسرارهم ، والتحدث عما خالجهم من

إحساسات ، وأكثر الرحالة الذين طافوا بالعالم ، وجابوا الأقطار كانوا يعقدون الصداقات ويتعرفون إلى الناس فى مختلف البقاع لحاجتهم الماسة إلى أوعية يستودعونها أحاسيسهم ومضمر أسرارهم وثمرات تجاريبهم ومشاهداتهم ، وحاجتنا الشديدة إلى الأصدقاء والأصفياء الذين نألفهم ونستريح إليهم ونستشيرهم فى مشكلاتنا ، ونشاطرهم مسراتنا وأحزاننا سببها هذه الرغبة القابضة على زمام نفوسنا ، الغالبة على طباعنا ، ولقد كان رجل مثل الخليفة العظيم هارون الرشيد فى أوج سلطانه ، وعنفوان مجده وعزه يشعر بحاجته إلى صديق يخلطه بنفسه ويقاسمه ملكه ، ويفضى إليه بدخائله ومستكنات ضميره ، ولقد أصاب فى بادئ أمره هذا الصديق فى وزيره جعفر البرمكى ، وبدا له بعد ذلك أن هذه الثقة فى غير مكانها فتغير قلبه وساءت حالته النفسية ، ومأساة حياة البرامكة هى نفسها مأساة حياة الرشيد وانهيار ثقته فى الحب والصداقة والنفس الإنسانية قاطبة ، وغشيان المجتمعات ، وارتياد الأندية سببه رغبتنا فى فتح مغاليق قلوبنا ، والتخلص من أسرارنا . فالأحاديث المتبادلة فى أمثال هذه المجتمعات تلطف من شجوننا وتذود الملل عن نفوسنا ، والأحاديث المستطابة والمناجاة المستعذبة هى ألوان مختلفة وصور متعددة للاعتراف . والأطفال فى ذلك أسعد منا حالاً ، وأقدر على التفلت من أزماتهم ، فهم سرعان ما يبدون ما فى نفوسهم لأول قادم . أما نحن الكبار فلا بد لنا من مراعاة المعايير الأخلاقية ، والموازين الإجتماعية ، وتقدير ما يليق وما لا يليق قبل أن نشمل إنساناً بثقتنا ، ونختصه بأسرارنا ، وحتى بعد أن تتوثق بيننا وبين الناس العلاقات ، وتتصل الأسباب فإننا فى الحقيقة لا نفضى إليهم إلا بالأسرار الطافية فوق سطح نفوسنا . أما أسرارنا العميقة ، ودخائلنا الدفينة ، فإننا نحتفظ بها فى الأعماق والأغوار . فإذا ما استثارتنا ثائرة ، واهتاجت نفوسنا هائجة فهناك يبرز المخبأ ، وينكشف

المستور ، وتتكسر الحواجز ، وتتداعى الأسوار ، وينطلق التيار زاخراً هادراً ، مكتسحاً كل شيء غير مبق على شيء .

وقد لاحظ علماء النفس المحدثون أن الانتحار يكثر فى الأمم البروتستانتية ويقل فى الأمم الكاثوليكية ، وعللوا ذلك بمسألة الاعتراف عند الكاثوليك فهى بركة من البركات ونعمة من النعم . .

وطريقة التحليل النفسى الحديث فى معالجة الأمراض العصبية التى وضع أساسها العلامة فرويد أظهرت قيمة الإعتراف ، وأوضحت أهميته ، وساعدت الإنسان على أن يعرف نفسه ، وأن يلقى ببصره فى ظلماتها الدامسة وسراديبها الخفية . بل يسّرت مناجاة الإنسان لنفسه وتحليله لعواطفه الخاصة . وكل إنسان له أسراره التى يخفيها حتى عن نفسه ، وليس فى مقدوركل إنسان أن يعرف كيف يجلو تلك الأسرار ، ويفتش عنها فى ثنايا الفؤاد ، ومعظم الأمراض العصبية سببها ما سماه فرويد « الكبت » ومصدر هذا الكبت الرغبة فى تناسى الأحاسيس المؤلمة والأفكار الممضة ، ولكنه تناس غير تام ، لأن جزءاً من الفكرة المقموعة يحتال ويتخفّى ويتخذ صوراً رمزية ، أو يبدو فى شكل مرض عصبى ، وفى هذه الحالة يستعمل الطبيب النفسى فنه وتجربته ، ويعلم المريض كيف يعرف نفسه عن طريق الاعتراف .

وقد عرف جيتى كبير شعراء الألمان قيمة الاعتراف ، وقدّر مدى تأثيره فى علاج الأمراض العصبية . وقد روى أنه شفى إحدى السيدات من اضطراب عصبى انتابها بأن حملها على أن تصف أخطاءها ونقائصها فى تفصيل دقيق ، وإسهاب مستوعب ، وقال إنه بهذا الأسلوب مكّنها من أن تلقى بهمومها فى قاع البحر ، وتسترد صفوها وبشاشتها . والذى يعترف بأخطائه وآثامه سرعان ما ينسى وجودها ويكسر أغلالها وقيودها .

والأدب فى لبه وصميمه قائم على الاعتراف بأساليب مختلفة وطرائق متباينة ، ففيه الاعترافات الصريحة المباشرة مثل اعترافات روسو واعترافات تولستوى وهينى والفرد دى ميسيه ، وهناك التراجم الذاتية مثل ترجمة المؤرخ جيبون لنفسه وترجمة استيوارت مل لحياته ، وهناك كتب التأملات والذكريات واليوميات مثل خواطر بسكال وتأملات مرقس أورليوس ويوميات أميل ورسائل أوبرمان وخواطر موريس ليجران . وكبار الروائيين يتحدثون إلينا عن أنفسهم ، ويصفون لنا تجارب حياتهم خلال تحدثهم عن شخصياتهم الروائية ، وعوالمهم المتخيلة ، وقد وصف لنا تولستوى فى روايته العظيمة عن «الحرب والسلام» أباه وأمه والكثيرين من أفراد أسرته كما وصف لنا جوانب مختلفة من شخصيته فى سائر رواياته . ومن المعروف الآن أنه فى روايته «كريتزر سوناتا» إنما يصف لنا نفسه فى فترة من فترات علاقاته بزوجته ، وما طغى على نفسه من الغيرة المؤلمة لنشوء صداقة بينها وبين شاب موسيقار مما نغص عليه حياته وأثار همه .

وفى الأدب المصرى الحديث أثران بارزان هما فى الحقيقة نوع من الاعتراف ، وهما كتاب الأيام للدكتور طه حسين وسارة للأستاذ عباس محمود العقاد ، وقد أراد الدكتور طه أن يتخلص من المشاعر المؤلمة التى ألمت به فى صدر حياته فلم يجد خيراً من تسجيلها تسجيلاً فنياً ، واستطاع بذلك أن يتغلب عليها ويصرعها ، وواضح أن شخصية همام فى رواية سارة هى نفسها شخصية الأستاذ العقاد بميوله العارمة ، وعزيمته الماضية ، وعقليته النافذة الغلابة . وقد كتب العقاد روايته ليعالج علاجاً فنياً أزمة نفسية رجت نفسه وزلزلت كيانه ، وفى هذا النوع من الإيضاح والتكشيف مسلاة للقلب وتقوية للنفس .

والإعتراف هو حجر الزاوية فى مذاهب التحليل النفسى الحديث ، وأثره فى الآداب والفنون جدير بأن يبوئه مكاناً مرموقاً ويوليه عناية خاصة .

فهرس

رقم الإيداع	١٩٧٨/٢٨٩٦
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٢٦٣ – ٥

١٨٢/٧٧/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

هذا الكتاب

عرف العلماء فى جميع ميادين العلم والمعرفة . . الكثير القيّم عن الإنسان والحياة والمجتمع . ولكنهم جميعاً يسلمون بأن المجهول أكثر من المعلوم .

وفصول هذا الكتاب تتناول مشكلات حاول المؤلف أن يوضح غامضها ويجليها لمن تعنيهم أمثال هذه البحوث من القراء .

إن هذا الكتاب الذى نقدمه لك بقلم الأديب الكبير على أدهم . . أقرب إلى الدراسات الجدية منه إلى الخطرات العابرة . . وهو محاولة لفهم الكثير عن الحياة .



